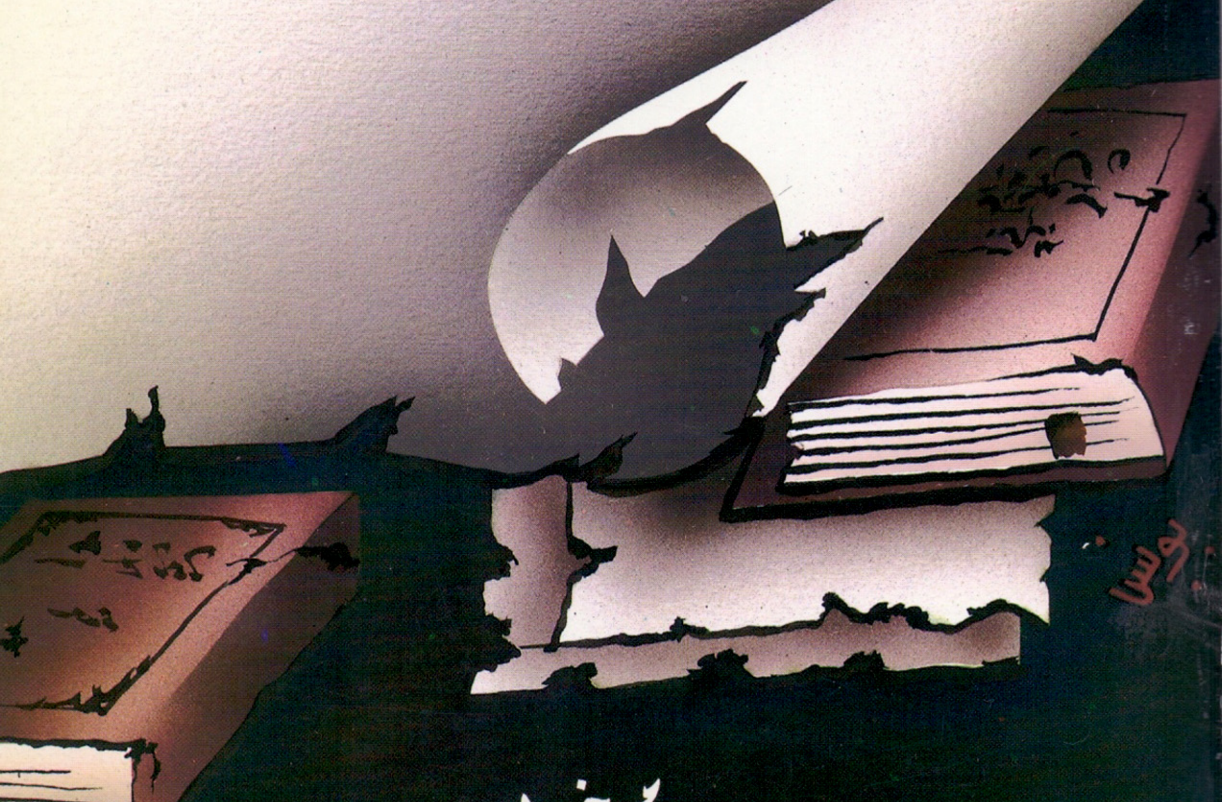
كتب نادرة

من التراث الإسلامي



محمد خير يوسف

كتب نادرة

من التراث الاسلامي

محمد خير رمضان يوسف

٠٩٨
٩٨٠ ي
يوسف ، محمد خير رمضان
كتب نادرة من التراث الإسلامي / محمد خير رمضان يوسف
الرياض : دار طويق ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
١٨٣ ص ، ٢٤ سم
ردمك ٣-٠٠-٦٧١-٩٩٦٠
١ . الكتب - عرض وتحليل
٢ . الغرائب والعجائب
أ . العنــوان

رقم الإيداع ٠٠١٥ / ١٤

ردمك ٣-٠٠-٦٧١-٩٩٦٠

دار طويق للنشر والتوزيع

ص ب ٣١٩٣٤ الرياض ١١٤١٨ هاتف ٤٠٤٢٥٥٥ - فاكس ٤٠٣٤٢٣٨

مقدمة

استوقفني كتاب عنوانه «**ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار**» الذي ما إن وقعت عليه عيني حتى أبرق إليَّ الجهاز العصبي بأن أمدَّ إليه يدي ، من غير توانٍ أو انتظار!

ثم لم تلهني العناوين الأخرى الكثيرة عن هذا الكتاب ، فاستعجلت الخروج ، وتأبطتُ الكتاب ، وكأنني أحمل كنزًا . .

وصرت أفكر في الطريق عن مضمون الكتاب وما يحتويه من قصص وحكايات تاريخية وواقعية ، وعن مواقف لبعض النساء وكيدهن . . وعقدت العزم على قراءته كله ، ليكون رصيدًا في ذاكرتي ، أخفف به عن بعض من ابتُلي بنساء ولم يكتب له التوفيق معهن . .

وفي لحظة مفاجئة مال بي التفكير إلى المؤلف المسكين !! فما الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب والخوض في هذا الموضوع دون غيره؟! وهل هناك في ترجمته ما يدل على أنه ذاق من بعض النساء الكرب والبلاء حتى يفعل هذا؟ وهل كانت حياته في جحيم نتيجة اقترانه بامرأة صارت تكيد له وتذيقه غُصص الحياة؟!

لقد استغربت من اسم المؤلف أيضًا ، الذي لا شبيه له ، فهو يُعرف بـ «ابن القطعة»! ثم لم أُستدلَّ على ترجمته لأعرف عنه شيئًا . . فهو من المغمورين الذين لا يعرف عن أحوالهم شيء . . فهل نقول إن هناك أيضًا مَنْ شغله في بيته عن الشهرة فاكتفى باجترار همومه فترة ما؟!

ومن جهة أخرى ـ كما في عبارات صحفية ـ لاحظت على زملاء ممن يهمهم أمر المطالعة والبحث أنهم عندما كانوا يرون هذا الكتاب ، كان يفعل بهم الجهاز العصبي مثلما فعل بي! فينكبون على مطالعته وتصفح أوراقه ، وتلهيهم موضوعاته عن الانشغال بغيره من الأمور ، وكأن هناك شيئًا ما في نفوس الجميع! وعندما يرى بعضهم أن الوقت قد ضاق به ، يتأبَّطه ، كذلك ، ربما بدون شعور . . فقد يجد فيه حلًّا لمشكلته ، أو يخفف به عن نفسه عندما يقرأ عن مصائب أكبر من مصيبته!!

ولكن الله سلَّم . . فقد تبيَّن أن كاتبه ممن يخشى الله فيما يكتب ، فيذكر ما ورد لهن وعليهن ، ويركز على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وابتلائهم بنساء بعيدات عن منهج الحق والصواب ، ثم قصصهن مع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبعض القصص الأخرى من هنا وهناك . .

لكن يلمح من كلمتين أوردهما أنه قد اكتوى بنارهن ، فيذكر في المقدمة أن أحدهم سأله أن ينظم أبياتًا يعدد فيها «المعايب والمثالب في وصف النساء الغالبات لكل غالب» ، فوقع ذلك منه موقعًا حسنًا ، أو ـ في التعبير العصري ـ: دقَّ على وتر حسَّاس ، قال: «فبادرت إلى ما أشرت إليه ، وكنتُ من أحرص الناس عليه»!

وهذا أول الكتب الغريبة الذي تُعرض عليك مختاراتٌ من محتوياته في هذا الكتاب . .

● وإذا عرفت أن في العامية الشامية يقال للمرأة الكثيرة الخروج والولوج: شطَّاطة نطَّاطة ، أو: بتشطِّي وبتنطِّي . . فإن أبا الطيب اللغوي المتوفى سنة (٣٥١هـ) راقه أن يؤلف كتابًا في مثل هذه الكلمات التي تتتابع

على الوزن والرويِّ نفسه ، إشباعًا وتوكيدًا . . وصار الأمر يعرف بمصطلح لغوي خاص يسمى «**الإِتْباع**» . . فيورد لك مثلاً : «يوم عكيك أكيك» إذا كان شديد الحر ، و«لحمه خظا بظا» إذا كان كثيرًا متراكمًا ، و«رجل حُطائط بُطائط» إذا كان قصيرًا غليظًا .

ويذكر أبو العلاء المعري أن هذا العالم اللغوي قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته ، لأن الروم قتلوه وأباه في فتح حلب . .

● ثم يأتي كاتب حديث ، فيلتفت إلى أدب العصر العباسي ، ويروقه من بين هذا الأدب أن يجمع «**أشعار الشحاذين**» ! ! فيتحفنا «بكومة» منها .

وعندما ترى باب شاعر شحاذ يسمى أبا فرعون الساسي مغلقًا ، فلا تظن أنه بسبب ما جمعه من الناس ولئلا يطلع عليه أحد! بل يقول إن السبب هو كيلا يرى سوء حاله أحد . . فيقول شعرًا :

ليس إغلاقي لبابي أن لي ... فيه ما أخشى عليه السَّرَقا
إنما أُغْلِقه كيلا يرى ... سوءَ حالي من يجوب الطرقا
منزل أَوْطَنَهُ الفقرُ فلو ... دخل السارقُ فيه سُرِقا!

● أما أبو منصور الثعالبي فيبدع في كتابه «**التوفيق للتلفيق**» عندما يورد أجناس حُرِّ الكلام ، وبديع سحر البيان ، في التلفيق بين الشيء وجنسه ، والجمع بين الشيء وشكله ، نظمًا ونثرًا ، وجدًّا وهزلاً . . ومن ذلك قول المأمون في التفاحة : قد اجتمعت فيه الصفرة الذهبية ، والبياض الفضي ، والحمرة الياقوتية ، يلذُّه من الحواس ثلاث : العين للونه ، والأنف لطيبه ، والفم لطعمه!

● أما البيروني ، الرياضي ، المؤرخ ، الذي علت شهرته ، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره ، في القرن الخامس الهجري ، فيأخذنا إلى دنيا أخرى غيرما أَلِفَه الباحثون ، ويخوض بنا بحرًا آخر من بحور العلم . . فهو بالإضافة إلى ذكره أنواع الجواهر واللآلىء واليواقيت ، يبين طرقًا عديدة لمعرفة الصحيح السليم من السقيم المزيف! ويسمي كتابه «**الجماهر في معرفة الجواهر**» . وهو يعدد هذه الجواهر والأعلاق النفيسة المذخورة في الخزائن ، ويتلوها بذكر أثمان المثمنات وما يجانسها من الفلزات ، ليكون في ذلك «تذكرة» له في خزانة الملك المؤيد شهاب الدولة أبي الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، ملك غزنة ، الذي افتتح كثيرًا من حصون الهند ، واستمر إلى أن توفي في بلده سنة ٤٤١هـ .

● ثم تندهش عندما تصل إلى **خطبة عصماء** من خطب أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ وسيأخذك العجب عندما ترى أن هذه الخطبة الطويلة ذات التركيب المعماري الفريد **خالية من حرف الألف** تمامًا ! !

وقيل إن عليًا عمد إلى إنشائها عندما تباحث القوم وأجمعوا على أن حرف الألف هو أكثر حروف الهجاء داخلة في الكلام !

● ثم قدَّر الله أن يكـون من نصيب هذا الكتاب عرضُ بعض القصص والحكايات من كتاب «**الرِّقَّة والبكاء**» لموفق الدين بن قدامة المقدسي وهو ما يزال مخطوطًا ، وقد انتهيت من تحقيقه ولمَّا يطبع بعد . .

وقد صرَّح مؤلفه . . هذا العالم الجليل ، أنه جمع هذه الأخبار ليداوي بها قسوة قلبه ، ويستجلب بها دموع عينيه ، ولم ير لمثل هذا أفضل من أخبار الصالحين الذين تحيا القلوب بسماع أخبارهم ، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم . .

وإذا كان ذكر اسم هذا الإمام العالم يقترن بكتابه الموسوعي المعروف «المغني» في الفقه الحنبلي ، الذي أمضى فيه ما يقرب من عشرين عامًا ، فإنه قد يغيب عن ذهن البعض أنه كان معروفًا بزهده وصلاحه وتواضعه وحبه للمساكين . . وله نظم رقيق مؤثر . . يقول في بعض ما نظم مخاطبًا به نفسه :

أتغفُل يا ابن أحمد والمنايا — شوارعُ تَخْتَرِمْنَكَ عن قريب؟
أغرَّك أن تخطَّتكَ الرزايا — فكم للموتِ من سهم مصيب؟
كؤوس الموت دائرةٌ علينا — وما للمرء بُدٌّ من نصيب
إلى كم تجعل التسويف دأْبًا — أما يكفيك إنذارُ المشيب؟!

● ويتلوه كتاب آخر يشبهه في موضوعه ، وهو كتاب «**رؤوس القوارير**» لإمام الوعظ في وقته أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ، حيث إن له كتابًا يسمى «المدهش» ـ الذي هو حقًّا مدهش في موضوعاته ـ فعمد إليه واختصره ، لأنه «غزر علمه ، وكبر حجمه ، فاستطاله الملول ، واستكثره المشغول» ، وسماه «رؤوس القوارير» . ويرى أن هذا المختصر فريد . . ويشبِّهه بقوارير فيها أدوية ، فإذا أُخذ من كل قارورة شيء قليل ، ثم مزج جميعها ووضع في قارورة مستقلة ، فإنه يتشكل منه دواء جديد غير ما هو موجود في سائر الأدوية أو القوارير! ! أو مثل «جُونة العطار» التي فيها أنواع العطور . . فإذا أُخذ من كل قنينة عطرٍ شيءٌ ، ثم خُلط بعضه ببعض ، فإنه ينتج منه عطر جديد . . لا يشبه أيّ عطر سابق!

وانظر إلى هذا العالم الجليل كيف يضرب الأمثال ، وينبه الآخرين ليعتبروا . . فيقول عن الببغاء : إنه لما عزَّت نفسها زاحمت الآدميين في النطق

وشـابهتهم في تنـاول مطاعمها بيدها . . فالعجب لبهيم يتشبه بإنسان ، ولإنسان يتشبه بالبهيم!

● ثم قد لا تملك نفسك من التعبير عن الدهشة عندما تعرف أن الدَّلْجي (ت ٨٣٨هـ) أضناه التعب وهو يبحث في كتب التاريخ والأدب والتراجم ليلتقط لك أخبار الناس «غير المحظوظين» أو المهملين من الناس لفقرهم وإملاقهم! مسميًا كتابه «**الفلاكة والمفلوكون**» . وقد بدأ كتابه وهو يخاطب هؤلاء وكـأنـه واحد منهم ، حيث يقول : «فقد منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتابًا بديع المثال . . » .

وعند الرجوع إلى ترجمته تبيَّن أنه «مفلوك» من نوع خاص! وأنه ممن لم تُحمد سيرتهم أصلاً ! فقد كان متنقصًا للناس ، كثير الاستهزاء بهم!

● واخـترت من كتاب الجاحظ عرض كتابه «**القول في البغال**» ، الذي يعتبر من آخر ما ألف . . ويبدو أن هذا الحيوان . . النتاج الغريب ، قد استأثر باهتمامه أكثر من أي حيوان آخر ، ولذلك أعطاه حجمًا أكبر من المعـالجـة ، أو أنـه أفـرده بكتاب خاص لأنه يستحق ذلك ، بينما أهمله الآخرون ولم يعطوه حقه من الاهتمام . . ولذلك صار يتحدث عن أخلاق هذا الحيوان ، وما قيل في طول عمره ، وتشبيهه بالأسد ، ثم ما قيل فيه من الشعر مدحًا وذمًّا ، وما جاء فيه من نوادر ، ثم بيان الانتفاع به في البريد ، وركوب الأشراف ونسائهم البغال . . وغير ذلك!

● ثم لابـد من المـرور بالإمـام جلال الدين السيوطي ، عبقري التأليف والتصنيف ، الذي زادت مؤلفاته على السبعمائة كتاب!

وكتابه الذي نحن بصدده لا يُعَدُّ تأليفًا في موضوع غريب محدد ، لأنه أصلاً موسوعة في الغرائب والعجائب!

لقد سمى كتابه «**الكنز المدفون والفُلْك المشحون**» . . وهو كما قال . . إنه موسوعة في النوادر والغرائب في جميع العلوم والفنون ، فيها فوائد وألغاز وحِكَم وحكايات وأشعار وتواريخ وإسلاميات نادرة وغريبة حقًّا . . لكنها تفتقر إلى الترتيب الموضوعي ، وعمل الفهارس اللازمة ، وإلا فإن الإفادة منه تكون صعبة . كما يحتوي على أخبار لا تصدق ، بل فيها بعض الخرافات والأساطير ، واجتهادات لعلماء هي غريبة في بابها أيضًا . . ويبدو أن هذه الحصيلة الضخمة من الفوائد النادرة هي نتاج مطالعاته الطويلة الدائبة ، فقد كان ينقل ويجمع كل ما مرَّ به من أمر غريب ، ليودعها في «الفُلْك» ، ويشحنه ، فيكون من رآه ووقف عليه كأنه وقف على «كنز مدفون» !

● ثم ستستغرب إذا عرفت أن ابن جنّي . . هذا الأديب اللغوي العبقري ، هو الآخر يطرق باب الغرائب ، ولكنه يلج بسهولة ودون استئذان ؛ لأنه متمكن مما سيبحث فيه . . حيث اختار أن يفسر أسماء شعراء ديوان الحماسة!! نعم ، يفسر أسماءهم دون أن يترجم لهم . . ويسميه : «**المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة**» . فهو يقول ـ مثلاً ـ في تفسير اسم الشاعر: «الحريش بن هلال القريعي» : الحريش : دويبة أكبر من الدودة على قدر الإصبع لها قوائم كثيرة ، وهي التي يسميها الناس : دخال الأذن . وقريع : تصغير تحقير لأقرع!

ويقول عن «أدهم بن أبي الزعراء» : الزعراء : القليلة الشعر!

ويقول عن «المعلوط بن بدل القريعي» : المعلوط من علطت البعير ، إذا وسمته في عَرْض خده . .

ومعظم الأسماء التي يتعرض لها أسماء شعراء جاهليين . ولا شك

أنك عندما تقرأ هذا الكتاب تحمد الله تعالى على نعمة الإسلام ، وعلى هذه الأسماء الجميلة ذات المعاني الجليلة .. عبدالرحمن ، ومحمد ، وأحمد ، وعلي .. بدل أسماء الأحجار والدواب أو الدويبات ..!

● أما اليعقوبي المؤرخ ، الذي عاش في القرن الثالث الهجري ، فيعمد إلى تأليف كتاب بعنوان «**مشاكلة الناس لزمانهم**»! ويورد استنتاجات عميقة الدلالة عن أحوال الناس وتقليدهم أو متابعتهم لمناهج حكامهم في حياتهم المعيشية والإدارية والترفيهية ، منذ الخليفة الأول أبي بكر الصديق حتى الخليفة المعتضد بالله .

فأبو بكر الذي كان أزهد الناس وأشدهم تواضعًا وتقلّلاً في لباسه ، عندما زاره ذو الكلاع ملك حمير وعليه التاج ، ورآه في هيئة الزهاد ، نزع لباسه وتشبه به!

وعبدالملك بن مروان كان صارمًا حازمًا ، وكان له إقدام على الدماء ومعاجلة ، فكان عماله على مثل مذهبه ، مثل الحجاج بالعراق ، والمهلب بخراسان ..

لقد دوَّن استنتاجات موثقة في علم الاجتماع التاريخي ، سبق بها ابن خلدون وغيره .. ولا أدري ماذا يقول المتخصصون في هذا الأمر؟!

● والآن ، عندما تقول : «والله ما سألتُ فلانًا حاجة قط» ، تكون صادقًا عندما تقصد التعريض بالكلام ، وتعني بـ «الحاجة» ضربًا من الشجر له شوك ، وجمعها «حاج»!

وعندما تقول : «والله ما أخذتُ من فلان دجاجة ولا فرُّوجًا» ، فإن

من معاني «الدجاجة»: الكبة من الغَزْل» . ومن معاني «الفروج»: الدرَّاعة ، التي هي قميص المرأة!

في هذا ومثله يستوقفك ابن دريد ، أحد أئمة اللغة والأدب في القرن الثالث الهجري ، ويعرض عليك كتاب «**الملاحن**» الذي يعني به الفطنة ، أو صرف الكلام بمعناه إلى تعريض وفحوى .

وإذا دعتك نفسك لكي تتهم المؤلف بأنه يعلِّم بعض ضعاف النفوس ممن تسوِّل له نفسه اللعب بالكلام ، فإنه يلخص لك الهدف من وراء ذلك ويؤوله بغاية نبيلة ، وهي الدفاع عن المظلومين الذين يُكْرَهون على الحلف! فيعلمهم المؤلف التعريض في الكلام ، وهو التورية والكناية!!

● ويخطر على بال ابن حَيَّوَيه (ت **٣٦٦**هـ) خاطر غريب . . وربما أرَّقه هذا الخاطر ولم يدعه حتى ألَّف فيه!

فقد لاحظ أن بعض الصحابة وزوجاتهم ـ رضي الله عنهم ـ قد اشتهروا بكنى حتى غلبت على أسمائهم الحقيقية ، فعُرفوا بكناهم وغابت عن الأذهان أسماؤهم . . مثل أبي ذر وأم ذر ، وأبي الدحداح وأم الدحداح ، وأبي رافع وأم رافع ، وأبي الدرداء وأم الدرداء ، وأبي سلمة وأم سلمة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ . ثم يورد حديثًا رواه الصحابي ، وحديثًا روته زوجته . . ويسمي كتابه: «**مَنْ وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة**»!

● ونعرج مرة أخرى على الإمام السيوطي لنرى أنه قد جمع أبياتًا من كل حدب وصوب ، وضمنها أحد كتبه الذي سماه «**نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر**» ـ يعني من الناحية الجمالية ـ .

ويبين في مقدمته القصيرة عدم رضاه عمن ألف في مثل هذا الموضوع وفضل «السودان» على «البيضان» ، حيث إنه ممن يرى أن المرأة البيضاء مفضلة في جمالها على السوداء بشكل عام . . وهو يورد ما قيل في البيض ، ثم ما قيل في السُّمر ، ثم ما قيل في السود ، ثم ذكر مَنْ أنصف .

والعجيب أن الأبيات التي أوردها في تفضيل السمر والسود هي أضعاف ما أوردها في تفضيل البيض!! فلا أدري كيف قصرت همة هذا الإمام على تأييد رأيه بالقليل من الأبيات!! إلا إذا كان حسم هذا الموضوع بالبيت الذي قاله البهاء زهير:

والحق أبيضُ أبلج   والحقّ أولى ما اتُّبِع

لكن هذا الشاعر نفسه الذي فضَّل البيضاء ، يقول أبياتًا أخرى فيها تفضيل للسمراء . . ثم يحتار عندما يرى قلبه ـ أو عينيه ـ بين جمال هذه وتيك ، فيقول في «ذكر مَنْ أنصف» :

إن المليحَ مليحٌ   يُحَبُّ في كلِّ لون!

● ويتقدم الإمام العالم ابن طولون الصالحي الدمشقي (ت ٩٥٣هـ) بمشروع رائع عندما يدوِّن سجلًّا بالمناصب والمهن في عهده ، التي انقرض كثير منها اليوم ، فاختفى ، أو حلَّ محله مهن أخرى مشابهة ، أو تغيرت أسماؤها . . ويسمي كتابه : «**نقد الطالب لزغل المناصب**» . والزغل : الغش والفساد . . حيث يشير المؤلف إلى ما يدخل على كل منصب من انحرافات ، وما يطلب من العاملين فيه من سلوكيات .

إنه يحدثك عن منصب البشمقدارية الذي ينحصر تخصصه في حمل نعل الأمير! وعن منصب الطبردارية ، والمكاري ، والكلابزي ،

والأميرشكار . . ثم يتحدث عن مهنة النحاة والمؤرخين والنسَّاخ والصباغين والفرَّاشين والسجَّانين . . إلخ .

● ثم ترسو بك السفينة في الميناء الأخير ، لتنزل منها وتضع عصا التّرحال ، وتُقَدَّم إليك ألوان الفاكهة وأطايب الطعام .

أديب مؤرخ مترسِّل من أهل بغداد ، كان محترمًا عند الخلفاء والملوك ، يعرف بـ «غرس النعمة» ، يجمع لك من هنا وهناك «**الهفوات النادرة**» التي وقع فيها الناس ، سواء أكانت هذه الهفوات من علماء ، أو خلفاء ، أو أمراء ، أو من مغفلين ملحوظين أو محظوظين . . ! !

مجلد ضخم يقع في أكثر من خمسمائة صفحة . . كيف ومتى وأين جمعها هذا الأديب الظريف؟ !

لقد رجعت إلى ترجمته عسى أن أقف على شيء يعرفني بسبب اهتمامه بمثل هذا الموضوع وتمكنه من جمع هذا الكم الهائل من الهفوات النادرة . . نعم . . لقد تبين أنه أنشأ دارًا ببغداد ، ووقف فيها أربعة آلاف مجلد في فنون العلم ! !

فلا يستغرب بعدها ما قيل من أين جمعها؟

ثم لا يقف الأمر عند هذا . . فإنه كان صاحب «مقالب» كما يقال في عصرنا هذا . . فهو يورد كمًّا هائلاً مما حدث معه ومع غيره من هذه «المقالب» ، منها ما أورده في ص (١٧٥) من هذا الكتاب ، حيث كان يمزح مع أمين مكتبته . . واتفقا مرَّة على أن يوقعا رجلاً في «فخ» . فاختفى أمين المكتبة في مكان قريب بحيث لا يراه أحد ، وصار المؤلف يسأل رجلاً عن رأيه في أمين المكتبة . . فأخذ يصفه بأقبح الصفات ، ويتهمه بالبخل ،

وأنه لم يطعمه باذنجانة ، أو قليلاً من لبن حامض . . وبعد أن قال كل ما عنده ، إذا بالأمين يقف أمامه فجأة! ! فيرتعد ذلك الرجل خوفًا وحياءً . . أما المؤلف والأمين فقد استلقيا على ظهريهما من الضحك وهما يسمعان الرجل يعود من جديد فيصف الأمين بصفات حسنة وهو يتصبَّب عرقًا . . ثم يقول المؤلف إنه لم يتحمل الموقف من الضحك ، فخرج من المنزل ساعة «ليغير الجو» ، وليتمكن من العودة إلى حالته الطبيعية! !

* * *

ما أجمل تراثنا! . . وما أبهى مروجه! . . وما أنضر ربيعه! . . وما أزهى ثماره! . . وما أروع أصدافه ومرجانه! . .

لقد حوى في أحشائه كل العلوم . . وأعطى للناس كل الفنون . . وأهدى لأهل الأذواق أجمل الكلام وأحسن الأعمال . .

فأين المخلصون؟

وأين هم المنصفون؟!

. . وتلك كانت لمحات من الكتب التي سأعرضها معك في هذا الكتاب . . وهو يأتي بعد كتابي الأول «**جولة بين كتب غريبة**» الذي عرضتُ فيه أربعة عشر كتابًا نادرًا غريبًا من كتب التراث الإسلامي - وقد نهجت المنهج نفسه هنا - وذكرت أن هذه تجربة أردت بها تشويق القارىء إلى تراثنا ، وتقديم ما هو مسلٍّ ومفيد في الوقت نفسه . . فهو نوع من أنواع الأدب الممتع الهادف . .

وقد لا تنتهي الجولات بين هذه الكتب مادام تراثنا حيًّا نابضًا بين جوانحنا . . نذود عنه ، وننفض عنه غبار الأيام ، ونقدمه في ثوب مشوق جديد . . لجيل غاب عنه روعةُ ماضيه! !

وقد اطلعت على كتب أخرى تحمل عناوين غريبة ، لكني لم أر في بعضها ما يغري بالعرض . . والبعض الآخر لم أطلع على محتواها . . ومن هذه العناوين وتلك :

- الأسد المعار لقتل التيس المستعار .
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، للسان الدين بن الخطيب[١] .
- الأوائل ، للحافظ الطبراني[٢] .
- رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس ، لابن كرَّام الجثمي البيهقي . وهو شيخ الزمخشري . وكان حنفيًّا ، ثم صار معتزليًّا ، فزيديًّا . وقد دفع حياته ثمنًا لهذا الكتاب (٤٩٤هـ)[٣] .
- الطراز المنقوش في محاسن الحبوش ، لأبي المعالي علاء الدين بن محمد البخاري المكي[٤] .
- الظَّرف والظُّرفاء ، للوشاء[٥].
- فتح المتعال في مدح النعال ، لأحمد بن محمد المقري . ت ١٠٤١هـ[٦] .

---

(١) نشر فصلاً منه حسن حسني عبدالوهاب ، الذي طبع في بالرمو سنة ١٩١٠م ، القسم الثاني : في أخبار الجزيرة الأندلسية ، طبع برباط الفتح سنة ١٣٥٣هـ ، وفي بيروت بعنوان : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، عام ١٩٥٦م .

(٢) صدر بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي امرير . عمان : دار الفرقان ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ ، ١٢٧ص .

(٣) وقد صدر بتحقيق حسين المدرسي الطباطبائي عام ١٤٠٦هـ ، وعلى نفقته ، وطبع منه مائة نسخة فقط ، ويقع في ١٤٢ص .

(٤) صدر في جدة : مطبعة الحضارة العربية ، ١٤٠٠هـ ، ١٢٠ص .

(٥) صدر بتحقيق فهمي سعد ، بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ ، ٤٠٧ص .

(٦) صدر عن دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن عام ١٣٣٤هـ ، ويقع في ٤١٤ ص . =

- مخ البعوض في علم العروض .
- كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم ، لأبي حاتم السجستاني(١) .
- منهل اللطائف في الكنافة والقطائف ، للسيوطي(٢) .

وهناك كتب أخرى معروفة ومتوفرة في المكتبات ، لم أشر إليها .

● ومن الكتب الحديثة التي تلفت عناوينها الانتباه :

- أما لهذا الفاسق من يبعج بطنه(٣) ؟ لأحمد فهمي حمدان .
- حوار بين طفل ساذج وقط مثقف ، لأحمد بهجت .
- رسالة في قمع الشهوة عن تناول التنباك والكفتة والقات والقهوة .
- العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج ، لعبد الفتاح أبو غدة .
- فيض المنن في الرد على من فضَّل السمك على اللبن ، لأحمد التابعي(٤) .
- لسان الزهور ، أو تسلية المحبين في زهور بدري أمين(٥) .
- اللغات السرية للحرامية ، لعلي عيسى(٦) .

= والمقصود : نعال الرسول ، ﷺ ، وذكر ما ورد فيها من أحاديث وأخبار وآثار ، وما قيل في رسمها ولونها وهيئتها من شعر ونثر ، وما رُؤي منها في المنام . . إلخ .

(١) صدر في القاهرة عن المكتبة المحمودية التجارية ، ٨٨ ص ، وصدر في طبعات أخرى حديثة .

(٢) صدر في القاهرة عن مكتبة الشرق الإسلامية عام ١٣٥٧هـ بتعليق عبدالله محمد الصديق .

(٣) صدر في حلب عن دار الأصيل عام ١٣٩٦هـ ، ١١٤ص . وهو مقالات نقدية تتناول نزار قباني وآخرين .

(٤) مؤلفه من متخرجي دار العلوم بالقاهرة ، وكان مدرسًا بمدرسة محمد علي الأميرية .

(٥) صدر في دمشق عن مكتبة الطرائف عام ١٣٣٩هـ ، ٣٠ص .

(٦) صدر في القاهرة على نفقة المؤلف عام ١٤٠٩هـ ، ١١٥ص .
والمؤلف كان يتردد بانتظام على سجون مصر كدارس ، وقضى أيامًا طويلة مع النشالين واللصوص وتجار المخدرات والمتسولين ، واكتسب ثقتهم ، وعرف لغاتهم السرية !

- المتحمسون الأوغاد .
- مذكرات دجاجة ، لإسحاق موسى الحسيني(١) .
- الناس على دين إذاعاتهم !

● ومن الكتب الأجنبية الغريبة :
- طهي حيوانك الأليف وأكله !

وهو كتاب ساخر ، ظهر في بريطانيا عام **١٤٠٩**هـ ، ويتضمن وصفات لأطعمة فاخرة ، الغرض منها التفكُّه ! وقد أثار ضجة من جانب دعاة الرأفة بالحيوان ، وطالبوا بوقف الدعاية له ، بينما دافع الناشر عنه بقوله : إنه كتاب خفيف الظل ، سليط اللسان ، والغرض منه الضحك !

- عندما تضحك الشعوب ، تأليف ديك بيري .

والمؤلف أمريكي الأصل ، قضى (**٣٠**) عامًا في طوكيو. وقبل هجرته إلى اليابان عمل عشر سنوات مراسلاً لصحيفة «باسفيك ستار» الأمريكية في فيتنام ، كما عمل أيضًا مراسلاً آسيويًّا لكثير من الصحف . . وقد تكوَّن لديه رصيد هائل من النكت السياسية وغير السياسية . وقد رصد في هذا الكتاب عشرات النكت عن الأمريكيين واليهود واليابانيين والأيرلنديين والبولنديين والإيطاليين والفرنسيين واليونانيين والعرب .

- لو أبصرتُ ثلاثة أيام ، بقلم هيلين كيلر آدامز(٢) .

والمؤلفة تعرضت في الشهر الخامس من عمرها لمرض حرمها من

---

(١) صدر في سلسلة «اقرأ» بالقاهرة في أكثر من طبعة .

(٢) صدر بترجمة عبدالهادي التازي عن دار الرفاعي بالرياض عام ١٤١٠هـ ، ٤٧ ص ، (المكتبة الصغيرة ، ٥٢) .

بصرها وسمعها ، ومنعها أيضًا من الكلام! ثم استطاعت أن تتعلم النطق وهي في العاشرة من عمرها . . وتخرجت بتفوق من كلية «رادكليف» عام ١٩٠٤م ، وانصرفت للقراءة والتأليف! وتنقلت عبر كثير من بلاد الدنيا!!

وإنه لنمط فريد من التأليف ، هذا الكتاب . . إنه يعالج تجربة لم تقع ، تجربة متخيلة لم يزد عمرها عن ثلاثة أيام . . والمؤلفة لا تبصر ولا تسمع ، وهي من أجل ذلك كله لا تستطيع أن تمسك قلمًا!! فكيف تخطت كل هذه الحواجز لتضع لقرائها مثل هذا الكتاب؟!!

* * *

ثم إن الغريب أن يصدر كتاب يتحدث عن عناوين الكتب!

فقد أصدر الكاتب محمد عويس كتابًا بعنوان: «العنوان في الأدب العربي» ، حيث خصص الفصول الثلاثة الأولى للبحث في الأصل الاشتقاقي للفظ العنوان ، والعلاقة بينه وبين الاسم قبل انتشار التدوين . أما في الفصل الرابع فيصعد في تيار الزمن للتعرف على العنوان منذ عصر الطباعة في الغرب . ثم تخصص الفصول الأخيرة للمقالات والقصائد ، لتصل إلى الشعر الحديث!

كما يبدو أن هناك من جمع عناوين الكتب الغريبة في كتاب . . لكنني لم أطلع عليه . . يقول أحد الصحفيين: «قرأت في حياتي كتبًا كثيرة ، منها كتاب عن أعجب وأطرف عناوين الكتب الغريبة التي صدرت في كل بلاد الدنيا»(١)!!

والله ولي التوفيق .

محمد خير يوسف

١٥/١٢/١٤١٣هـ

---

(١) محسن محمد ، جريدة الجمهورية ع ١٢٦٦٦ - ٢٠/١/١٤٠٩هـ ، الصفحة الأخيرة .

ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار*

لابن القطعة

دخل بعض الحكماء على عبدالملك بن مروان وبين يديه ابنة له وهو يقبِّلها ، فقال: يا أمير المؤمنين . . إن ماتت أحزنت ، وإن أدركت أفقرت ، تُلبسك العار ، وتقدم إليك أشرَّ الأصهار . تتمتع في خيرك ، وتميل إلى غيرك . تُحفظ بك إن أحسنتَ إليها ، وترفع غيرك على رأسها

(*) ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار/ تأليف إسماعيل بن نصر بن عبدالمحسن السلاحي المعروف بابن القطعة؛ ضبطه وحققه وقدم له رياض مصطفى العبدالله . بيروت: دار الجيل ، ١٤١٣هـ ، ٣٥٩ص .

وليس في هذا الكتاب الكثير مما يغري قارئه بدلالة عنوانه . . وهو أكثر ما يورد قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقصص التاريخية القديمة ، معظمها معروف ووارد في كتب التراث ، الأدبية منها خاصة . ويبدو على مؤلفه المعالجة الإسلامية للموضوعات ، حيث يستشهد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، ويورد أقوال العلماء والعارفين . . وقد فرَّق قصصًا متنوعة بين جوانب هذه الموضوعات لئلا يمل القارىء . وهو قبل أن يدخل في موضوعات الكتاب يقدم لها قصيدة تبلغ (٨٤) بيتًا ، فيها إشارات للقصص والحكايات الواردة في الكتاب .

وعن سبب تأليفه للكتاب يذكر أنه طُلب منه الكتابة في هذا الأمر ، فلاقى عنده قبولاً حسنًا . . يقول: «فإنك سألتني ـ أيدك الله ـ أن أنظم لك أبياتًا في إعداد المعايب والمثالب في وصف النساء الغالبات لكل غالب ، فبادرتُ إلى ما أشرتَ إليه ، وكنت من أحرص الناس عليه ، فنظمت ما وصل إليه خاطري ، ووقع من الكتب عليه ناظري . .» .

ويذكر محقق الكتاب أنه لا يُعرف عن مؤلفه «ابن القطعة» شيء ، وأن النسخة التي حققها مؤرخة في سنة ١٠١٧هـ .

وبعد عزيزي القارىء! فلعلك تسأل معي: ما الذي دعا هذا المؤلف أن يكتب في الأخيار الذين ابتلوا بالنساء الأشرار؟ ولماذا كان اختياره لهذا الموضوع دون غيره من الموضعات؟!

ويديها . توقد نيران الحرب ، ولا تملُّ من إيقاع الضرب .

فقال عبدالملك: لولاهن ما ظهرت الأنبياء ، ولا استنارت الجوزاء . .

● روي عن أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ـ وكان عمره ستًّا وثلاثين سنة ـ وكان له فرس ، فقال لقوّاده: بماذا يصلح هذا الجواد؟ قالوا: يُغزى عليه في سبيل الله تعالى . قال: لا . قالوا: فيُطلبُ عليه العدو . قال: لا . قالوا: فماذا يصلح أيَّد الله الأمير؟ قال: يركبه الرجل ، فيهرب من الجار السوء والمرأة السوء!

● لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس ـ لعنه الله ـ وهو يسوق أربعة حمير عليها رحال ، فسأله: ما تحمل؟ قال: أحمل تجارة وأطلب مشترين . قال: فما هي التجارة؟ قال: أما أحدها: فالجَوْر . قال: من يشتريه؟ قال: السلاطين . قال: فما الثاني؟ قال: الحسد . قال: ومن يشتريه؟ قال: العلماء . قال: فما الثالث؟ قال: الخيانة . قال: ومن يشتريها؟ قال: التجار . قال: فما الرابع؟ قال: الكيد . قال: ومن يشتريه؟ قال: النساء!

● حُكي عن بعض المشايخ أنه كانت له جارية سفيهة اللسان ، قليلة الإحسان ، وكانت تأخذ من عرضه وتؤذيه ، وما كانت تراقب الله فيه ، وكان من كبار المشايخ . . وكانت الفقراء تأوي إليه وتبيت عنده . فسمعوها وهي تأخذ من عرضه وتستطيل عليه ، فقالوا له يومًا: لِمَ لا تبيعها وتستخلف غيرها وتستريح مما أنت فيه من مكائدها وسوءِ فعالها؟ قال: والله إني لأستحيي من الله أن أُبلي مسلمًا بها!

● وحكي أيضًا أن بعض المشايخ كانت له زوجة سوء . . وكانت

لا تزال تُهينه في كل وقت ، وتأخذ من عرضه وهو صابر عليها . . فلما كان في بعض الأيام ، أخذ المصحف الشريف على عادته كي يقرأ . . فأول ما فتحه وجد فيه : ﴿**يا عبادِ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون. الذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنَّة أنتم وأزواجكم تُحبرون**﴾(١) . فوضع المصحف من يده على كرسيه ثم قال : اللهم لا تفعل ، اللهم لا تفعل ، اللهم لا تفعل ، أسألك بهذا الكتاب العزيز ، وأسألك بكل كتاب أنزلت ، وكل نبي أرسلت ، اللهم لا تفعل . . وجعل يقسم على الله تعالى . فقالت له زوجته : ما بك يا رجل؟ وما الذي دهاك؟ فإني أراك تقسم على الله - سبحانه وتعالى - بهذه الأقسام . . ؟ فقال : يا امرأة ، وكيف لا أقسم وقد قال الله - عز وجل - : ﴿**أنتم وأزواجم تُحبرون**﴾؟ فإنني في هذه الدنيا التي هي ساعة لا أقدر أن أقاسمك فيها ، فكيف يكون في دار الأبد الأزلي؟ قالت : يا رجل لا تدعُ الله بهذا فإنني تائبة ، وإني لا أعود إلى مثل ذلك ، ولا أؤذيك ، ولا أشغل لك قلبًا ، ولا أضيق لك صدرًا في الدنيا ولا في الآخرة إن شاء الله تعالى ، لعل الله - سبحانه وتعالى - يجمع بيننا في الآخرة .

● وحُكي أيضًا عن بعض الصالحين ، أنه كانت له زوجة ، وكانت سليطه اللسان عليه ، وكانت تبتليه بأشد البلاء . فلما ماتت وقف على قبرها وقال : اشهدوا عليَّ رحمكم الله أنها طالقة مني ثلاثًا! فقالوا له : ويحك! إنها قد بانت منك ، وهي طالقة منك شئت أم أبيت ، فما يحتاج إلى ذكر ذلك؟!

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٦٨ - ٧٠ . والمقصود : الزوجات المؤمنات ، كما في تفسير ابن كثير . ولا يبدو أن المرأة تبقى على مثل هذا الخلق . . فلا حسد ولا حقد في الجنة . . وقد يكون ما قيل من شدة ما لقيه ذلك الشيخ . . نسأل الله السلامة!

فقال: بلى ، خيفة أن تكون زوجتي في الجنة! فإني لقيتُ منها في هذه الدنيا ابتلاءً شديدًا ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أكرم من أن يعذبني بها في الدنيا والآخرة!

● عن ابن عمر قال: سمعت النبي ، ﷺ ، يحدِّث لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ، حتى عدَّ سبع مرات ، ولكني سمعته أكثر من ذلك . سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول: «**كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عمله ، فأتته امرأة ، فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها . فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدتْ وبكت ، فقال: ما يبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا ، ولكنه عملٌ ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة . فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلتُه؟ اذهبي فهي لك ، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبدًا . فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكِفْل**»(١) .

● شكا جرير بن عبدالله البجلي إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ما يلقى من النساء ، فقال عمر: لا عليك ، فإن التي عندي ربما خرجتُ من عندها فتقول: إنما تريد أن تتصنَّع لفتيات بني عبدالمطلب . وسمع كلامهما عبدالله بن مسعود فقال: لا عليكما ، فإن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ شكا إلى ربه ذرعًا من خُلق سارة ، فأوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه أن ألبسها ثوب التقوى . . فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إن بين جوانحك علمًا .

---

(١) أورده المؤلف في ص ١٥٨ ، وقد نقلتُ نصه من الجامع الصحيح للإمام الترمذي الذي قال فيه: هذا حديث حسن . . كتاب صفة القيامة ، الحديث رقم «٢٤٩٦» ٤/ ٦٥٧ ـ ٦٥٨ .

● تنـافرت امرأة وزوجها إلى أسلم بن قتيبة فقالت: أبغضه والله لخصـال فيه ، فقال: وما هي؟ قالت: هو قليل الغيرة ، سريع الطيرة ، شديد العتـاب ، كثير الحساب ، قد أفل نخره ، وأدبر دفره ، وهجمت عيناه ، واضطربت رجلاه ، يفيق سريعًا ، وينطق وجيعًا ، يصبح خليًّا ، ويمسي رحيًّا ، إن جاع جزع ، وإن شبع جشع!

● نظر خالد بن صفوان إلى جماعته في مسجد البصرة فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: إن امرأة تدل على النساء . فأتاها فقال لها: أريد امرأة ، فقالت: صفها لي . قال: أريد بكرًا كُفيت ، أو ثيبًا ، حلوة من قريب ، تحفـة من بعيد ، كانت في نعمة وأصابتها حاجة ، فيها أدب النعمة وذلّ الحاجة ، إذا اجتمعنا كنا أهل دنيا ، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة . قالت: قد أصبتُها لك ، فقال: وأين هي؟ قالت: في الجنة ، فاصعد إليها!

● حُكي أن عابدين توافقا في السياحة زمانًا طويلاً ، فبدا لأحدهما الرجوع إلى وطنه ، فكتب الآخر معه كتابًا إلى أهله . فلما أوصل الكتاب إلى زوجة صاحبه ، نظر إليها فافتتن بها ، وكانت جميلة صالحة ، وكلمها بسرِّه ، فقالت له: إذا كان الليل سر إليَّ بعد العشاء . ثم خرجت إلى بعض أهلها ، فأخذت منه مائة دينار ، فدخلت حجرة النخاسين ، واستعرضت جارية على صفتها ، واشترت لها الثياب الفاخرة ، وقالت لها: إني اشتريتك لأخ لي . ثم صنعت ألوانًا من الطعام . فلما أمست ، جاء الرجل فدخل عليها ، فرأى الجارية مزينة ، فظن أنها هي صاحبته . فأكل وغسل يديه ، فقـامت الجـارية ، فطرحت الفـراش ، ونصبت الشمعـة . وقـام العابد يصلي . . حتى نامت الجارية ، والمرأة الصالحة تتطلع عليهم من شقوق الباب . فصلى الرجل ما شاء الله تعالى أن يصلي ، ثم جاء إلى الشمعة ،

فأحرق إصبعه بالنار ـ يذكِّر نفسه أنه كيف يصبر على نار جهنم ـ ثم عاد إلى الصلاة . . قال: فلما قرب الصباح ، سجد سجدة ، وقال: يا إلـهي ، إني لا أطيق نفسي ، فاقبضني إليك . فقُبض في سجدته تلك . فلما سكنت نفسه ، خرجت المرأة الصالحة وأيقظت الجارية حتى توقظه ، فحركته ، فإذا هو ميت . فشاع الخبر في الليلة ، وكثر المصلون والباكون عليه . . والله أعلم .

● عن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء وسلمان أولاد يسار حاجَّيْن من المدينة ، ومعهما أصحاب لهما ، فأتوا منزلاً ، فانطلق سلمان وأصحابه لحاجتهم ، وبقي عطاء يصلي في منزله . فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة ، فأوجز في صلاته ثم قال لها: ألك حاجة؟ فقالت: نعم . قال: وما هي؟ قالت: قم فأصبْ مني فإني قد أردتُ ولا بعل لي . فقال لها: إليك عني ولا تحرقيني ونفسك في النار . . والمرأة تراوده عن نفسه ، فجعل يبكي ويقول: إليك عني . . ثم اشتد بكاؤه . فلما نظرت المرأة إليه ملَّت بكاءه . فبينما هما في ذلك إذ أقبل سلمان ، فجعل يبكي في ناحية من الدار لبكائه . . وكان أصحابه يأتون رجلاً رجلاً ، ويبكون ولا يسألون عن أمرهم ، حتى كثر البكاء . فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت ، وقام القوم فتفرقوا . فلبث سلمان بعد ذلك دهرًا طويلاً لا يسأل أخاه عن قصته وقصة المرأة ، وذلك إجلالاً له ، وكان أسنّ منه . .

● اشترى رجل جارية بديعة في الحسن ، وكان في غاية القبح ، فلما صارت في داره ، نظر إليها فضحك ، ونظرت إليه فبكت ، فقال لها كالمغضب: أنظرُ إليك فأضحك وتنظرين إلي فتبكين؟ فقالت: نظرت أنت إلى ما يسرّك فضحكتَ ، ونظرتُ أنا إلى ما يسوؤني فبكيتُ!

● قدمت جارية أحمد بن سليمان المائدة إليه ونسيت الملح ، فقال لها : أين الملح ؟ فقالت : في وجهي !

● مرَّت نمرة بنت زهر بقوم من بني نمير ، فتأملوها جدًّا ، فقالت : يا بني نمير ، لا قول الله أطعتم ، ولا قول الشاعر سمعتم .

قال الله تعالى : ﴿قُل للمؤمنينَ يغضُّوا من أبصارهم﴾[1] .

وقال جزير:

فغضَّ الطَّرْف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

● قال رجل لمعشوقته : أعطني خاتمك أذكرك به! فقالت : خاتمي من ذهب وأخاف أن يذهب ، ولكن خذ هذا العود لعلَّك تعود!

● قال رجل لحياة بنت شريح : أريد أن أتزوج ، فما ترين؟ قالت : كم المهر؟ قال : مائة دينار . قالت : لا تفعل ، لك أن تتزوج بعشرة دنانير ، فإن وافقتك ربحت تسعين دينارًا ، وإن لم توافقك تزوج أخرى ، فلابد في عشرة نسوة أن توافقك امرأة واحدة!

(١) سورة النور ، الآية : ٣٠ .

الإتباع *
لأبي الطيب اللغوي

عرّف أحمد بن فارس الإتباع في كتابه فقه اللغة فقال:
«هو أن تتبع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها ورويّها إشباعًا وتوكيدًا».
أي أن يتبع الثاني الأول على وزنه ورويّة كقولهم: حسن بسن. فهما على وزن واحد، ورويُّهما نون مقيدة.

ولا يقتصر الإتباع على اللغة العربية الفصحى، بل يرد في كلام العامة أيضًا.

ففي العامية الشامية - كما يقول المحقق - يقولون في المرأة الكثيرة الخروج والولوج: «أنتِ شطّاطة نطّاطة، بتشطّي وبتنطّي».
وقالوا فيمن خدعه خصمه: «راح فيه شَرَدْ مَرَدْ».

(*) الإتباع/ تأليف أبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي، حققه وشرحه وقدم له عزالدين التنوخي، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م - ١٨، ١٢٨ص.
ولم يورد المحقق له ترجمة، وهو في الأعلام: عبدالواحد بن علي الحلبي، أبو الطيب اللغوي (ت: ٣٥١): أديب أصله من «عسكر مكرم» سكن حلب، وقتل فيها يوم دخلها الدمستق.
له كتب منها: «مراتب النحويين» و«لطيف الإتباع» و«الإبدال» و«شجر الدر» و«الأضداد».
الأعلام جـ ٤ ص ٣٢٥ ط ٣.
وأورد المحقق قول أبي العلاء المعري فيه: «ولا شك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته، لأن الروم قتلوه وأباه في فتح حلب».

ويكثر إتباعُهم في ألفاظ الطعام نحو: زلط ملط ، وهرش مرش . .

ومن الإتباع العامي بلفظين بعد المتبوع قولهم في الرجل الخبيث النبيث: فلان «حِلِسْ مِلِسْ نِجِسْ».

ومما أورده أبو الطيب اللغوي من التوكيد والإتباع في كتابه هذا:

يقال: «يوم عكيكٌ أكيكٌ»: إذا كان شديد الحرّ. قال الراجز:

يوم عكيكٌ ، يعصر الجلودا   يترك حُمران الرجال سودا

ويقال: «بلد عريض أريض». فالعريض الواسع ، والأريض الحسن من النبات .

قال امرؤ القيس:

بلاد عريضة وأرض أريضة   مَدافِعُ غيثٍ في فضاء عريض

ويقال: «لحمه خَظَا بَظَا». إذا كان كثيراً متراكمًا .

ويقال: «وقع في حَيْصَ بَيْصَ». أي في ضيق لا يقدر على الخلاص منه .

ويقال: «تفرَّق القوم شَغَرَ بَغَرَ» و«شَذَرَ بَذَرَ» إذا تفرَّقوا في كلِّ وجه .

ويقال: «رجل حُطائطٌ بُطائطٌ». إذا كان قصيراً غليظًا .

وقالوا: «هو في حِلٍّ وبِلٍّ». البِلُّ: المباح بلغة حِمير .

ويُدْعى للرجل فيقال: «حيَّاك الله وبيَّاك». قال الأصمعي: بيَّاك: أضحكك . وقال أبو عبيدة: بيَّاك: مَلَّكَكَ .

ويُقال: «شكوت إليه عُجَري وبُجَري» أي: همومي وأحزاني .

وقالوا: «عين حَدْرَة بَدْرَة» أي عظيمة . والبدرة الكاملة التامة ، ومنه سمي البدر لتمامه!

وقال ابن الأعرابي: يقال: «وقع القوم في دَوْكة وبَوْكة». أي في اختلاط وشرّ.

ويقال: «ما أعطاه حَبَرْبَرًا ولا تَبَرْبَرًا»، و«ما أعطاه حَوَرْوَرًا ولا تَوَرْوَرًا». أي: ما أعطاه شيئًا. قال الشاعر:

أمانيُّ لا تُجدي عليك حَبَرْبَرا

ويقال: «أُفًّا له وتفًّا». والأُفُّ: وسخ الأذن، والتفُّ وسخ الأظفار، ويقال: بل هو ما يخرج من الأنف.

قال أبو مالك: يقال: «حارٌّ يارٌّ جارٌّ». ويقال: «رجل حَرَّان يَرَّان جَرَّان»: إذا أصابته مصيبة.

وقولهم: «رجل أَحْمَقُ أَزْبَقُ». والأزبق: الذي ينتف لحيته من حمقه.

ويقال: «هو قبيح شقيح» بيِّنُ القباحة والشِّقاحة. وشقح البُسْر إذا تغيرت خضرته ليحمرَّ أو ليصفرَّ، وهو أقبح ما يكون حينئذ. ويمكن أن يكون مأخوذًا من أشقاح الكلاب، وهي أدبارها. ويقال: لأشقحنَّك شَقْح الجوزة بالجندل، أي: لأكْسرَنَّك.

ويُسَبُّ الرجل فيقال: «رَغْمًا دَغمًا شِنَّغْمًا» و«فعلت ذاك على رَغْمه ودَغْمه وشِنَّغْمِه».

ويقال: «تركنا الديار بَلاَقِعَ صَلاَقِعَ» أي: خالية من أهلها.

ويقال في الكثرة: «إنه لكثير نَثير بَثير بَذير عَفير عَمير» يوصف بها كلِّها الكثرة.

ويقولون: «رجل أَيْمان عَيْمان». والأَيْمان: الذي ماتت امرأته، والعَيْمان: الذي هلكت إبله فهو يَعام إلى اللبن، أي يشتهيه.

ويقال: «جيء به في حَسِّك وبَسِّك وعَسِّك»: أي من حيث تحسُّ به

ومن حيث تبسُّ : أي تسير إليه . وقولهم من عسِّك أي من حيث تعسّ ، والعَسّ الطلب بالليل .

ويقال : «شكوت إليه شُقوري وفُقوري» . أي دِخْلَةَ أمري .

ويقال : «إنه لحسنٌ بَسَنٌ قَسَنٌ» .

ويقال : «لحمه خَظَا بَظَا كَظَا» إذا كان متراكبًا غليظًا .

و«أخذه لِغِنْظِه وكِنْظِه» و«قد غَنَظني وكَنَظني» . وأصل الغنظ الخنق . والكنظ إتباع .

وقالوا : «خَصِيٌّ بصِيٌّ لَصِيٌّ» و«خصاه الله وبصاه ولصاه»[1] .

ويقال : «ما لي فيه حوجاء ولا لوجاء» أي ما لي فيه حاجة .

ويقال : ما ذقت عندهم شماجًا ولا لماجًا» وهما واحد . وهو ما يُقدَّم للضيف ليتعلَّل به قبل الطعام .

ويقال : «إنه لطبيبٌ لبيب» . واللبيب العاقل .

ويقال : «رجل هاعٌ لاعٌ» إذا كان جبانًا قليل الصبر .

ويقال : «وقعوا في هياط ومياط» . وهو الاختلاط والجلبة والشرّ .

ويقال : «ذهب ماله شَذَر مَذَر» أي : تفرّق في كل وجه .

قال الفرَّاء : ويقال : «جاءنا بالكلام سهوًا مهوًا» أي : سهلاً .

ويقال : «إنه لأحمقَ بِلْغٌ مِلْغٌ» قالوا : والمِلْغُ من الرجال : النَّذْل ، والبِلْغُ : الذي يبلغ ما يريد بحمقه . وقال أبو عبيدة : البِلْغُ : الذي قد بَلَغَ الغاية في الحمق .

ويقال : «إنه لتافهٌ نافهٌ» للشيء إذا كان قليلاً حقيرًا .

ويقال : «إن لعطْشان نَطْشان» . من قولهم : ما به نطيش أي حركة .

---

(١) البِصاء : أن يستقصي الخِصاء .

ويقـال: «رجل شَحيح نَحيح». من قولهم: نحَّ بالحِمْل وأنحَّ إذا ضعف من حمله، فكأن معنى النحيح الذي يضعف قلبه عن إخراج شيء.

و«ما به حَبَض ولا نَبَض» أي: ما به حراك.

أشعار الشحاذين*

لأحمد الحسين

قال أبو فرعون الساسي:

رأيتُ في النوم بختي ... في زيٍّ شيخٍ أرتٍّ(١)
أعمى أصمَّ ضئيلا ... أبا بنينَ وبنتِ
فكيف لي بدواءٍ ... يُلين لي بطن بختي

وقال أيضًا:

أنا أبو فرعون فاعرف كنيتي ... حَلَّ أبو عَمْرَة وسْطَ حجرتي(٢)
وحَلَّ نسجُ العنكبوت بُرْمتي ... أعشب تنُّوري وقلَّتْ حنطتي(٣)

وقال:

يا قاضي البصرة ذا الوجه الأغر ... إليك أشكو ما مضى وما غبرْ
عفا زمانٌ وشتاءٌ قد حضر ... إن أبا عمْرَة في بيتي انحجرْ
يضرب بالدُّفِّ وإن شاء زَمَرْ ... فاطردهُ عني بدقيقٍ يُنْتَظرْ

وقال:

وصبيةٍ مثل فراخ الذَّرِّ ... سُودُ الوجوه كسواد القِدْر(٤)

(*) أشعار الشحاذين في العصر العباسي/ جمع وتحقيق أحمد الحسين. دمشق: دار الجيل للطباعة، ١٤٠٦هـ، ١٢٣ص.

(١) الأرت: الذي في لسانه عقدة وحبسة.

(٢) أبو عمرة كنية الجوع.

(٣) البرمة: قِدْر من حجارة.

(٤) الذَّر: صغار النمل.

ومن قوله أيضاً:

هذا زمــانٌ عارمٌ من يُبْســهِ ... ترى الـلئيـم ينتقي من جنسـه
يصبــح من صبيــانــه وعـرسـه ... مســتــأثــرًا بخــبــزه ودبســه

وقال أيضاً:

ليس إغــلاقــي لبــابي أن لي ... فيــه ما أخشــى عليــه السَّرِقــا
إنــما أُغْــلِقُــه كيــلا يرى ... سوءَ حالي من يجوب الـطرقــا
منــزلٌ أَوْطَــنــهُ الـفـقــرُ فلو ... دخــلَ الــســارقُ فيــه سُرِقــا
لا تراني كاذبًــا في وصــفــه ... لو تراه قلت لي: قد صدقــا

وقال مخاطبًا الحُجَّاج:

يا خير ركــب سلكــوا طريـقــا ... ويـمَّــمــوا مكــة والـعـقيقــا(١)
وأطعمـوا ذا الكعـك والسَّـويقـا ... والخُشْكنــان اليـابس الـرقيقـا(٢)

وقال أيضًا:

يا إخــوتي يا معشر المــوالي ... أنــا ابــنــكــم وأنـتـمُ أخــوالي
هذا زَبِــيْــلي وجِــرَابي خالي ... والمــاءُ عالٍ والــدقـيـقُ غالي(٣)

وقد مللنا كثرة العيال

---

(١) العقيق: واد بظاهر المدينة المنورة.

(٢) الخشكنان: خبز يشبه البسكويت، وهي لفظة معربة.

(٣) الزبيل والجراب: وعاء يُحمل فيه.

التوفيق للتلفيق*

للثعالبي

يورد المؤلف في هذا الكتاب أجناس حُرِّ الكلام ، وبديع سحر البيان ، في التلفيق بين الشيء وجنسه ، والجمع بين الشيء وشكله ، نظمًا ونثرًا ، وجدًّا وهزلاً ، في ثلاثين بابًا . . من ذلك :

قول أحمد بن صالح بن شيرزاد(١) في جارية كاتبه ، رَدَّ أوصافها إلى أوصاف كتابتها : كأن خطَّها أشكال صورتها ، وكأن مدادها سوادُ شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قلمها بعضِ أناملها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكّينها غنج لحاظها ، وكأن مقطّها قلب عاشقها .

● وطلب بعض العزَّاب من دلَّالة ببغداد امرأةً يتزوجها ، فقالت له : لك عندي امرأة كأنها طاقة نرجسٍ . فتزوَّجها ، فوجدها عجوزًا ،

(*) التوفيق للتلفيق / تأليف أبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، حققه وعلق عليه إبراهيم صالح ، دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م . ٢٦٩ص .
والمؤلف ـ كما في الأعلام للزركلي ـ من أئمة اللغة والأدب ، وهو من أهل نيسابور . كان فرَّاء يخيط جلود الثعالب ، فنسب إلى صناعته ، واشتغل بالأدب والتاريخ ، فنبغ ، وصنف الكتب الكثيرة الممتعة . من كتبه : «يتيمة الدهر» في تراجم شعراء عصره ، و«فقه اللغة» ، و«سحر البلاغة» ، و«من غاب عنه المطرب» . . و«لطائف المعارف» . . إلخ . وقد اعتمدنا في الحواشي على ما أورده المحقق .

(١) ولاه المعتمد الوزارة ، وكان حسن المروءة شاعرًا ظريفًا ، وكان يسمى ظريف الكتاب ، توفي سنة ٢٦٦هـ .

فقرَّع الدَّلَّالة على كذبها ، فقالت: والله ما كذبتك ، أمَا تراها تجمع أوصاف النرجس في بياض شعرها ، وصفرة وجهها ، وخضرة ساقها؟

● ومن غرر الزاهي(١) قوله:

سفرنَ بدورًا ، وانتقبن أهلَّة ومِسنَ غصوناً والتفتن جآذرا
وأطلعن في الأجياد بالدُّرِّ أنجمًا جعلن لحباتِ القلوب ضرائرا

ووصف بعض البلغاء مخلفًا للوعد فقال: يُرسِلُ بَرْقَه ، ولا يسيلُ ودقَه ، ويقدم رعده ، ولا يمطر بعده .

● وكتب أبو محمد إلى ابن العميد: أنا أيَّد الله الأستاذَ الرئيس: سليمانُ بيته ، وأبو هريرةَ مجلسه ، وأَنَسُ خدمته ، وبلالُ دعوته ، وحسَّانُ مدحته .

● وكان ابن المقفَّع يقول: أخذتُ من كل شيء أحسن ما فيه ، حتى من الكلب ، والخنزير ، والهرّ . أخذت من الكلب نصيحته لأهله ، ومحافظته على أوامره . ومن الخنزير بكوره في حوائجه ، وحرصه على مصالحه . ومن الهرّ لين صوته في مسألته ، وانتهازه للفرصة في صيده .

● وقد ظرف الأحنف(٢) في التلفيق بين العنكبوت والسلحفاة ، حيث قال وهو يشكو عُرْيه وغربته:

العنكبوت بَنَتْ بيتًا على وهنٍ تأوي إليه ومالي مثله وطنُ
والسلحفاةُ لها من نفسها سكنٌ وليس لي مثلها إلف ولا سكنُ

---

(١) أبو القاسم الزاهي ، وصَّاف محسن ، كثير الملح والظرف .

(٢) هو الأحنف العكبري أبو الحسن عقيل بن محمد ، شاعر المكديين وظريفهم ، حسن الطريقة في الشعر .

● ودعا رجل لملك فقال: جعل الله قوَّتك قوة نملة ، وجرأتك جرأة ذبابة ، وكيدك كيد امرأة . فغضب الملك ، فقال له الرجل: على رسلك أيها الملك ، إنه يبلغ من قوة النملة أن تحمل أضعاف وزنها ، ومن جرأة الذباب أن يقع على أنوف الملوك ، ومن كيد المرأة أن تغلب دهاة الرجال . فسكن عن الملك الغضب .

● وأنشد حمزة الأصبهاني[1] لابن المعتز:

شعرات في الرأس بيض ودعج حلَّ فيها جيشان: رومٌ وزنجُ
أيها المشيب لِمَ حللت برأسي إن عمري عشر وعشر ونسجُ
طار عن مفرقي غراب شبابي وعلاني من بعده شامرج[2]

● وكان المأمون يقول في التفاح: قد اجتمعت فيه الصفرة الذهبية ، والبياض الفضّي ، والحمرة الياقوتية ، يلذُّه من الحواس ثلاث: العين للونه ، والأنف لطيبه ، والفم لطعمه .

● وقال مؤلف الكتاب (الثعالبي): من ملك الصفر [أي النقود]: احمرَّ لونه واخضرَّ عيشه .

● ومما يستطرف لابن خالويه النحوي قوله في برد همذان:

إذا همذان اعتادها القرُّ وانقضى بزعمك أيلول وأنت مقيم
فعينك عمشاء وأنفك سائل ووجهك مسودُّ البياض بهيم

(١) أبو عبدالله حمزة بن الحسن الأصبهاني ، ولد في أصبهان عام ٢٨٠هـ وتوفي عام ٣٦٠هـ . من فضلاء الأدباء ، له مؤلفات مفيدة .

(٢) الشامرج معرب من شاه مرغ ، وهو طائر أبيض كبير الحجم .

● وعربد هاشمي على أحمد بن سليمان[١] فأخرجه ، فقال: أتخرجني وتدع نبطيًّا؟ فقال: نعم ، رأس كلب أحب إليَّ من ذنب أسد .

● وقال أبو إسحاق الصابي لصديق له: أنت العين الباصرة ، واليد الناصرة .

● وأنشد الصولي لأبي علي البصير:

تفقَّد مساقط لحظ المريب ... فإن العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلامَ ... فإنك تحيي ثماد الغيوب

● ويقال: لم يُرَ خمسة إخوة أشدَّ تباعدًا من قبور بعضهم من بعض ، من أبناء العباس بن عبدالمطلب: فقبر عبدالله بالطائف ، وقبر عبيدالله بالمدينة ، وقبر معبد بإفريقية ، وقبر قثم بسمرقند ، وقبر الفضل بالشام .

● ولم يُرَ في الخلفاء أبعد قبرِ أبٍ من ابنه من الرشيد والمأمون ، وذلك أن قبر الرشيد بطوس ، وقبر المأموس بطرسوس .

● ذكر عبدالملك بن مروان رَوْحَ بن زِنباع[٢] فقال: جمع أبو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة الشام .

● وكان الحجاج يقول: لَمَّا تبوَّأتِ الأشياء منازلها ، قالت الطاعة: أنا أنزل الشام ، فقال الطاعون: وأنا معك ، فقال الخصب: وأنا أنزل

---

(١) لعله أحمد بن سليمان بن وهب ، أبو الفضل الكاتب ، كان بارعًا فاضلاً ناظمًا ناثرًا . ت ٢٨٥هـ .

(٢) أبو زرعة بن زنباع الجذامي ، كان يكتب لعبدالملك بن مروان .

العراق ، فقال النفاق : وأنا معك ، فقالت الصحة : أنا أنزل البادية ، فقال الشقاء : وأنا معك .

● وهذه حكاية حسنة في التلفيق بين خصائص البلدان : حدثني أبو الحسن المصيصي الدُّلفي الشاعر قال : جرت بين أبي علي الهائم وأبي دُلف الخزرجي في مجلس أنس لعضد الدولة أبي شجاع فنّاخسرو بشيراز مطايبةٌ ومداعبة ، ومحاضرة ومذاكرة . فقال أبو علي لأبي دلف : صبَّ الله عليك طواعين الشام ، وحُمّى خيبر ، وطيحال البحرين ، ودماميل الجزيرة[١] ، وسنابرد دهستان[٢] ، وضربك بالعرق المدني ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال أبو دلف : يا مسكين! أتقرأ «تبَّت» على أبي لهب ، وتنقل التمر إلى هجر[٣] ، وتلبس السواد على السُّرَط؟ بل صبَّ الله عليك ثعابين مصر ، وأفاعي سجستان ، وعقارب شهرزور ، وجرارات[٤] الأهواز ، وصبَّ عليَّ برود اليمن ، وقصب مصر ، ودبابيج[٥] الروم ، وخزوز السوس[٦] ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وسقلاطون[٧] بغداد ،

---

(١) هي التي بين دجلة والفرات .

(٢) في لطائف المعارف للمؤلف ، سناقر ، وهو طائر من الجوارح . ودهستان بلد قرب خوارزم وجرجان .

(٣) قاعدة البحرين ، مشهورة بالتمر .

(٤) عقارب صفر صغار .

(٥) الديباج ثوب رقيق حسن الصنعة .

(٦) السوس بلدة بخوزستان ، والخزّ من الثياب ما نسج من صوف وإبريسم .

(٧) ضرب من الألبسة ، وهو حرير مخلوط بخيوط الذهب .

وعمائم الأُبلَّة[١] ، وتوّزيَّ توَّج[٢] ، ومنيَّر الريّ [٣] ، وخفيَّ نيسابور ، ومُلْحَم مرو[٤] ، وسنجاب خيرخير[٥] ، وسمّور[٦] بلغار ، وثعالب الخزر ، وفنك كاشغر[٧] ، وقاقم الثغر[٨] ، وحواصل هراة[٩] ، وتكك أرمينية ، وجوارب قزوين ، وأفرشني بسط أرمينية ، وزلالي قاليقلا ، ومطارح ميسان[١٠]، وحُصر بغداد ، وأخدمني خصيان الروم ، وغلمان الترك ، وجواري بخارى ، ووصائف سمرقند[١١]، وحملني على عتاق البادية ، ونجائب الحجاز ، وبراذين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغال بردعة[١٢]، ورزقني تفاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجوز الهند ، وباقلّاء الكوفة ، وسكر الأهواز ، وعسل أصبهان ، وفانيذ ماسكان[١٣]، وتمر كرمان ، ودبس أرَّجان[١٤]، وتين حلوان[١٥]، وعنب

(١) مدينة قرب البصرة .
(٢) توَّج مدينة بفارس فيها ثياب كتان تنسب إليها .
(٣) ، ضرب من الثياب .
(٤) الملحم من الثياب ما كان سداه إبريسمًا ولُحمته غير ذلك .
(٥) في لطائف المعارف للمؤلف «خرخير» من بلاد الترك مخصوصة بالسنجاب الفاخر .
(٦) دابة من بلاد الروس تشبه النمس ، تصنع من جلودها فراء غالية الأثمان .
(٧) كاشغر: مدينة وقرى في وسط بلاد الترك . والفنك: دابة يُلبس جلدها .
(٨) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو . والقاقم حيوان له فراء فخم .
(٩) الحواصل: جلود تُلبس للتدفئة .
(١٠) ميسان: بين البصرة وواسط . والمطارح: البُسط .
(١١) الوصائف: الجواري .
(١٢) بردعة: بلد في أقصى أذربيجان .
(١٣) ماسكان بلد وراء سجستان ، والفانيذ: نوع من السكر .
(١٤) مدينة قريبة من شيراز .
(١٥) مدينة في العراق .

بغداد ، وعُنَّاب جرجان ، وآجاص بُست [١] ، ورمَّان الريّ ، وكمّثر نهاوند ، وسفرجل نيسابور ، ومشمش طوس ، وملبَّس مرو ، وبطيخ خوارزم ، وأشمّني مسك تُبَّت [٢] ، وعود الهند ، وعنبر الشحر [٣] ، وكافور فنصور [٤] ، وأترجّ طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر الشيروان [٥] ، وورد دجور [٦] ، ومنثور بغداد ، وزعفران قم ، وشاهشفرم سمرقند [٧] .

فضحك أبو شجاع منه ، وأعجب بقوله ، وتعجَّب من حسن محاضرته بالخصائص الشرقية والغربية ، وقال : مثلك يا أبادلف فلينادم الملوك . وأمر له بخلعة وصلة .

● وقال الحدادي البلخي :

كم خلَّفت تلك الركابُ وراءها من منزل فيه لنا مستمتع
فالورد يلطم خدَّه وجدًا بنا وعيون نرجسه علينا تدمع

● دعا بعض البلغاء على عدوٍّ له فقال : سلَّط الله عليه سيوف الهند ، ورماح العرب ، ومزاريق الدَّيلم ، وسهام الترك .

---

(١) مدينة من أعمال كابل .
(٢) بلد بأرض الترك مشهور بالمسك المستخرج من الظباء .
(٣) الشحر : صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن .
(٤) جزيرة في بحر الهند .
(٥) قرية من نواحي بخارى .
(٦) قريبة من شيراز . وإليها ينسب الورد الجوري ، وهو أجود أصناف الورد ، وهو الأحمر الصافي .
(٧) الشاهشفرم : فارسي معرَّب معناه : سلطان الريحان ، وهو الحبق الكرماني ، وهو ريحان دقيق الورق جدًّا ، عطر الرائحة .

● وحكى الجاحظ عن الحارثي أنه كان يقول: الوحدة خير من جليس السوء ، وجليس السوء خير من أكيل السوء ، وكل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلاً ، فإن كان لابد من المؤاكلة فمع من لا يستأثر بالمخ ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ، ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ السلافة ، ولا يختطف كلية الجدي ، ولا ينتزع خاصرة الحمل ، ولا يزدرد قانصة الكركي ، ولا يعرض لعيون الرؤوس ، ولا يستولي على صدور الدجاج ، ولا يسابق إلى استعاط الفراخ .

● وقال الشيخ أبو بكر ، ولفَّق بين أربع شينات :

كتبت وشينات حالي غلبن ... علي لمن جلَّ عن مشبه
فشوقي إليه وشكري له ... وشعري فيه وشغلي به

● ولأبي الفتح البستي :

قل للوزير الكريم قولاً ... يغضُّ من ناظر الكريم
دارُك لي جنة ولكن ... بوَّابها مالك الجحيم

الجماهر في معرفة الجواهر*

للبيروني

● الياقوت أنفس الجواهر وأغلاها . وهو أنواع ، منها الأبيض ، والأكهب[١] ، والأصفر ، والأحمر .

والياقوت الأحمر أجودُه الرماني ، ثم البهرماني ، ثم الأرجواني ، ثم اللحمي ، ثم الجُلَّناري الوردي .

والبهرمان هو العصفر ، يقال : ثوب مبهرم ، أي معصفر .

(*) الجماهر في معرفة الجواهر/ تصنيف أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني؛ تصحيح سالم الكرنكوي الألماني . بيروت : عالم الكتب ، القاهرة : توزيع مكتبة المتنبي ، دمشق : توزيع مكتبة سعدالدين ، د.ت ، ٢٧٣ ، ١١ ص (مصور من طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند . وبآخره ملحق في ذكر معادن اليمن لمؤلف مجهول) .

والجماهر : جمع جمهرة ، والجمهرة من كل شيء معظمه .

والمؤلف فيلسوف رياضي مؤرخ من خوارزم . أقام في الهند بضع سنين ، ومات في بلده ، وقد علت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره ، وصنف كتبًا كثيرة . ت ٤٤٠هـ .

يذكر المؤلف بعد مقدمة فيها «ترويحات» عديدة أصناف الجواهر واللآلىء والدرر ، وأنواع الأعلاق النفيسة والمرجان والمعادن ، وما قيل في ذلك من نظم ونثر . ويبين الطرق التي تعرف بها الجواهر الصحيحة من المزيفة . ويذكر في مقدمته أنه لم يقع في يده من هذا الفن غير كتاب يعقوب بن إسحاق الكندي في الجواهر والأشباه ، ثم مقالة لنصر بن يعقوب الدينوري ، عملها بالفارسية لمن لم يهتد لغيرها ، وهو تابع للكندي في أكثرها ، قال : «وسأجتهد في أن لا يشذ عني شيء مما في مقالتيهما ، مع مسموع لي من غيرهما» .

(١) كَهِبَ لونه : عَلَتْه غبرة مشربة سوادًا ، فهو أكهب ، وهي كهباء ، وجمعها : كُهْب .

وأنا أظن أن كوكب المريخ سمي بالفارسية بهرام للونه الأحمر .

والأُرجوان أشدّ الحمرة ، ويقال له : القرمز ، وإذا بولغ في نعت حمرة الثوب قيل : ثوب أرجواني .

والأرجوان لباس قياصرة الروم ، وكان لبسه فيها مضى محظورًا على السُّوقة . وذُكر أنه دم حلزون ، عرفه أهل بلد صور من خطم كلب كان أكل هذا الحيوان في الساحل ، فتلوَّن فمه بدمه!

● ومن أشباه الياقوت الأحمر نوع يسمى : كركند ، أي : الياقوت الأصم ، لأنه منعقد ضعيف الشفاف .

وأجود أنواع الكركند وأشدها شبهًا بالياقوت العصفري ، هو المعروف بالسندبا ، وله شعاع .

ومن الأشباه نوع يوجد في معادن الياقوت يسمى كُربُز ، سهل المكسر.

● وقد ذكر الجوهريون أن لملك سرنديب قطعة ياقوت مستطيلة على هيئة نصاب السكين ، يديم تقليبها في كفه ، ووزنها خمسة وخمسون مثقالاً ، ولم يخبر أحد بأكثر من هذا المقدار!

وذكر الحسن والحسين ، الأخوان الرازيان ، أن الأمير يمين الدولة محمود ، أراهما ياقوتًا على مثال حبة العنب ، وزنها اثنا عشر مثقالاً ، وأنهما قوَّماها بعشرين ألف دينار ، فصدَّقهما .

● وعندما ضاع فصُّ ياقوت للمأمون ، لم يُرَ مثله ، واغتمَّ له جدًّا ، وقال : لأضعن من قدر هذه الحجارة التي لا معنى لها . .

ولقد كان عمر بن عبدالعزيز أشدَّ وضعًا من قيمة هذه الحجارة ، مع

عفاف نفسه عنها وعن أمثالها ، بل وعن الدنيا كلها ، وقد كان يملكها . وعنـدما سمع أن ابنه عبدالله اشترى فصًّا بألف درهم ، كتب إليه : أما بعد ، فقد بلغني أنك اتخذت خاتمًا اشتريت فصه بألف درهم ، فعزيمة مني إليك إلا بعته وأطعمت بثمنه ألف جائع ، وعملت خاتمًا من وَرِقٍ فصُّه منه ، وكتبت عليه : رحم الله امرءًا عرف قدره . ففعل ما أمره به!

● وقيل : خير اليواقيت بعـد أنواع الأحمر هو المورَّد الأصفر ، ثم الأكهب ، وأدونه الأبيض .

قال الأخوان الرازيان : إن القطعة الواحدة ربما جمعت جميع الألوان! وأنه قد وقع إليهما واحدة تركبت من كل لون . . وكانا يعلمان أن النار تسلخ جميعها وتبيِّضُها ، ولا يبقى منها غير الحمرة الثابتة على حالها فقط ، فإنها لها كالأصل ، وسائر الألوان كالأعراض تبطُل بالإحماء ، ويبقى الجوهر صافيًا كالبلور .

والمختار من الأصفر هو المشبع الصفرة ، المقارب بالتشبه بالجُلَّنار من الأحمـر ، وبعـده المشمشي ، ثم الأترجِّيّ ، ثم التِّبني ، ولا يزال يتراجع بضعف اللون إلى أن يرجع ويقارب البياض ، ثم يبلغه .

والياقوت الأكهب أجوده الطاووسي ، ثم الآسمانجوني ، ثم النيلي ، ثم الآبجون ، وهو أقرب إلى البياض . ومن أنواعه : الكحلي ، والنفطي ، وإن ضربا إلى السواد .

والياقوت الأخضر خيرُ أخضرِه : الزيتي ، ثم الفستقي ، ثم ينحطُّ لونه بالتدريج حتى يبلغ البياض . وقيمته لا تبعد عن قيمة الأكهب .

● الجواهر الفاخرة في الأصل ثلاثة ، وهي : الياقوت ، والزمرُّد ،

واللؤلؤ . **واللعل** البدخشي يلحق باليواقيت ، بل هو أبهاها . فهو جوهر أحمـر مشف صاف ، يضاهي فائق الياقوت في اللون ، وربما فضل عليه حسنًـا ورونقًـا ، ثم يخلف عنه في الصلابة حتى أسرع التأثير إلى زواياه وحـروفه من مماسة الأشياء ومصاكتها ، ويجاوز ذلك إلى سطوحه المستوية حتى ذهب بهائه إلى أن يعاد عليه الجلاء بالمارقشيثا الذهباني الذي يسميه أهل المعادن ترنجه .

ومعلوم أنه لا يقوم على النار من أنواع اليواقيت غير أحمره ، وأن لونَيْ أصفره وأكهبه ينسلخان عنها في الحمي . . وذُكر أن اللعل يقاوم النار إن أُحمي بالتدريج . . وأن النار تزيده حسنًا وصفاءً .

وذكروا في أول ظهور هذا الجوهر «**اللعل**» أن جبلاً في بدخشان انشق وتقـطَّع بزلزلة أرجفت الأرض حتى تساقطت الصخور العظام ، وانقلب المـوضـع عاليهـا سافـلاً ، وظهـر اللعل منه ، ورأته النساء وظنته صابغًا للثياب ، وسحقته فلم تلون منه شيئًا ، وأرينه رجالهن ، وانتشر الحديث به ، وشعر أصحاب المعادن بأمره ، فاستنبطوه بالحَفْر .

وطلب اللعل ينقسم إلى قسمين : أحدهما بحفر المعدن في الجبل ، والآخر بتفتيشه بين الحصى والتراب المنهالة من تقطُّع تلك الجبال بالرجفات وإسالة السيول إلى السفوح .

ويوجد من جوهر هذا اللعل بنفسجي ، وأكهب ، وأخضر ، وأصفر .

● **والبيجـاذي** من أشبـاه الياقـوت ، وخـيره السرنـديبي المشبـع الحمـرة ، والمتلهِّب اللون بالصفاء ، وكلما كان أصلب جرمًا وأعظم جثة وأحمل لزغب الريش المنتوف فهو أنفس .

● وطريقة اختبار **الألماس**: أن يُجعل طرفٌ منه في شمعة ـ لتمكن الأصابع من إمساكه ـ ثم يُقام بإزاء عين الشمس، فإن سطعت منه حمرة ولهبة على مثال قوس قزح، كان هو المختار. وليس يسطع ذلك إلا من الأبيض والأصفر . .

● **السنباذج**، اسم هذا الحجر بالفارسية ينبىء عن القوة على الثقب، فإنه صارم كالفولاذ، ومعاون الألماس في الحك والجلاء، ونائب عنه في بعض الأحوال. وينوب عنه: الرمل السمرقندي الذي تُعمل منه المساحل .

● **واللآلىء** تكثر أسماؤها في العربية جدًّا، ككثرة أسماء الأسد . . ومن أسمائها المشهورة: اللؤلؤة، والدرَّة، والمرجانة، والنُّطفة، والتومة، والتوامية، واللطيمية، والصدفية، والسفانة، والجمانة، والونية، والهيجمانة، والخريدة، والحوصة، والثعثعة، والخصل . . .

واللؤلؤ الذي فيه صفرة يسيرة يُفضَّل على الأبيض اليفق، كفضل الذهب على الفضة، ولأن الدرَّة النفيسة الناصعة البياض القريبة العهد بالبحر، مما يلحقها كدر وتغيُّر لا يزال يسري فيها ويزداد إلى أن تسودَّ كالبعرة! فإذا بدت فيها الصفرة اليسيرة المعروفة أمن منها ذلك الداء، واستيقن أنها لا تتغير على الأزمان .

ومن أنواع اللآلىء: المدحرج، ويعرف بالعيون، فإن حسن لونه وكثر ماؤه وبريقه سمَّوه نجمًا. ومنها: المستطيل المتشابه الطرفين بالاستدارة، وتشبه ببعر الغنم، وربما شبِّه بالزيتونة، فقيل: زيتوني . ومنها: الغلامي المستدير القاعدة . ومنها الفلكي . ومنها الفوفلي المسطح

القاعدة ، المقبَّب الإحاطة العليا . ومنها : اللوزي ، والشعيري المستدق الطرفين ، والمضرَّس غير المحدد ، والقلزمي نسبة إلى بحر القلزم (الأحمر) .

● الفساد إلى الحيوان أسرع منه إلى النبات ، وإلى النبات أسرع منه إلى الجماد . واللؤلؤ جزء من الحيوان ، وشبيه فيه بالعظام . فتقادُم الزمان فيه يغيره عن لونه .

ولإصلاح ذلك يلاحظ أن التغير في اللون متى كان فيه كالشيب في الشَّعر لم يطمع في تغييره إلا بمثل الخضاب الذي هو تمويه فيه . ومتى كان عارضًا من حالة خارجة طارئة ، كالوسخ والعرق والبخارات والأدهان وروائح العطر ، كان أجود علاجها التقشير وإزالة الطبقة العليا الفاسدة عنه .

وقد قيل : إن اللؤلؤ إذا كان حار الملمس من بين أخواته دلَّ على دودة فيه .

وربما أصابت اللؤلؤ آفاتٌ في جوف الصدف من فساد مرعاه ، وهو الحمأة . وربما كان في جوفه ماء منتن ، فيثقب إليه ويخرج منه حتى يخلو ، ثم يُحشى بالمصطكى .

● من **الأصداف** ما تكون عظامًا تتقي بها حيوانات الماء عن مؤذياتها تسمى خزفًا ، وتلك كعيبات التماسيح ، وصحاف السلاحف ، وذوات الأصداف ، ولوالب الحلزون ، وأمثال ذلك . ويتولد في كل مستنقع ، وفي كل أرض دائمة الرطوبة برطوبة هوائها .

ومن أنواع الأصداف : الودع ، يجمعها الزنج في جزائرهم عند جزر الماء ، ويلقونها في حفرة ، ويطمُّونها حتى يموت حيوانها وتعفن لحومها وتبطل .

ومنها نوع في قدر البيض منقطة الظهور ، فيها قليل حمرة ، تعلق في أعناق الدواب ، ويصقل بها ذهب المصاحف ، ويسمى المنقاف .

ومن الودع نوع صغار الجثث ، بيض الألوان ، تشد منظومة في أيدي صبايا العرب والقرويين وأرجلهم .

وفي كتاب الجمهرة : القِبْقِب : صدف في البحر يؤكل لحمه . فإن كان كذلك فالأصداف كلها قباقب ، لأن جميعها يُشوى ويؤكل ويستطاب لحومها . ويشبه لحمها وطعمها بطعم البيض المسلوق .

● وخير اللؤلؤ ما انعقد قشرًا على قشر إلى أن يصير دُرًّا . وما كان داخل اللحم الأسود الذي يلي الدفتين فإنه لا يخلو من عيب فيه .

● **الـزمـرُّد والزَّبَرجد** اسمان يترادفان على معنى واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر بالجودة والندرة .

والخضرة تعمُّ الزمرد ، فليس منه نوع إلا على الخضرة ، وهو أربعة أصناف :

أولها : أخضر ذو ماء وبهاء كورق السلق الطري ، ثم تزداد خضرته وماؤه إلى أن يبلغ لون الآس وزرع الشعير الغض ، فيكون هذا الصنف الثاني أخضر أقلّ خضرة من الأول . والثالث : مشبع الخضرة قليل الماء ، ويسمى مغربيًّا لميل أهل المغرب إليه . والرابع : أنقص خضرة من البحري وأقتر ماء وأقل شعاعًا ، ويسمى أصم . وهو أرخص الأصناف قيمة .

والمختار من الزمرد الذي تغالى في ثمنه هو الصادق الخضرة ، الذي لا يشوبه صفرة ولا سواد ولا نمش ولا حرمليات ولا قراع ولا عروق بِيض .

● **والفيروزج** حجر أزرق أصلب من اللازورد يُجلب من جبل سان

من خان ديوند بنيسابور . والمختار منه ما كان من المعدن الأزهري والبوسحاقي .

● واللازورد يستعمل في الأصباغ ، وما دام صحيحاً فإنه يضرب إلى لون النيل ، وربما مال إلى السواد . وإذا سُحق أشرق لونه ، وجاء منه صبغ مؤنق لا يدانيه شيء من أشباهه .

● **وحجر التيس** هو حجر الترياق الفارسي ، وصورته كالبلوطة والبُسْرة[1] ، مطاول الشكل ، مبني على طبقات كقشور البصل ، ملتف بعضها فوق بعض ، يُفضي في وسطه إلى حشيشة خضراء تقوم لها مقام اللب للفواكه ، وهي قاعدة الطبقات ، ويدل على كونها واحدة فوق أخرى ، ويضرب لونها من السواد إلى الخضرة .

● **حجر الحلق**: بعدما مات بختيشوع ، وجد في أحد دروجه المغلقة حجر ، فسئل خادمه عن هذا الحجر فقال: لا أخبر به حتى يضمن لي أمير المؤمنين أن ينفذني إلى مملكة الروم ، فلا حاجة لي إلى العراق بعد موت صاحبي بختيشوع . فحلف له المتوكل أنه يرسله إلى هناك ، فقال: هذا حجر الحلق ، يُحلق به الشعر إذا مَسَّه ، فيغني عن النُّورة (إزالة الشعر) . وجرَّبوه على الساعد فلم يترك فيه شعرة . ففرح المتوكل به ، وأرسل الغلام إلى الروم .

● وتنتشر خرافة «**الحجر الجالب للمطر**» ملبسة بثوب علمي . . لكن المؤلف يتصدى لها ويعريها من هذا الثوب .

فقد ذكر أن بأرض الترك بين الخُرْلخ والبجناك أحجار يجلبون بها المطر إذا أراده! ! بأن يدخل الرجل الماء ، ويأخذ من أحجار تلك العقبة حجرًا

(١) البُسرة: واحدة البُسْر ، وهو تمر النخل قبل أن يُرْطِب .

في فمه ويحرك يده فيجيء المطر .

وسبب عثورهم على هذا النوع من الحجر أنهم لاحظوا أن جيشًا أو قطيعًا غنم إذا مرَّ بتلك العقبة يصطك بهذه الأحجار ، فيثور ضباب مظلم ، ويسيل مطر .

قال المؤلف : وكان حمل إليَّ أحد الأتراك منها شيئًا ، وظن أنني أقبلها ولا أناقش فيها ، فقلت له : جئني عن طريق هذه الأحجار بمطر في غير أوانه ، أو في أوقات مختلفة عندما أريد وإن كان في أوانه ، حتى أصدق هذا الأمر وأعطيك ما تريده وزيادة . ففعل ما كانوا يفعلونه ، من غمس الأحجار في الماء ، ورمي نقيعها في السماء ، مع همهمة وصياح . . ولكن لم ينفذ له من المطر قطرة واحدة سوى الماء المرمي لما نزل!

● **والأَذْرَك** حجر شريف من سبوك الإسكندرانيين ، قديم نفيس ، يجري مجرى الياقوت في النفاسة . والزجاج المصبوغ المسبوك الأذرك العتيق الأحمر الرماني كالياقوت الأحمر في لونه .

● وسمي **الذهب** بالذهب لأنه سريع الذهاب ، بطيء الإياب إلى الأصحاب . وقيل : لأن من رآه في المعدن بهت له ، ويكاد عقله يذهب! ويقال : رجل ذهب ، إذا أصابه ذلك . وقيل لديوجانس : لم اصفرَّ الذهب؟ قال : لكثرة أعدائه ، فهو يفرق منهم!

● **الطاليقون** : يذكر في كتب الطب أن المنقاش(١) المعمول منه إذا نُتف به الشعر الزائد في أهداب الأجفان منع عَوْده وقطع نباته! وقيل أيضًا : إن العين ترمد وتفسد بالنظر في مرآة معمولة من الطاليقون . وذكر أنه معمول من الشبَّه ، أو أنه جنس من النحاس .

(١) وهو نحاس محرق مسموم بأدوية تُلقى عليه .

خطبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخالية من حرف الألف*!

حَمِدْتُ مَنْ عَظُمَتْ منَّته ، وسَبغتْ نعمته ، وسبقتْ غضبَهُ رحمتُه ، وتمت كلمتُه ، ونفذتْ مشيئتُه ، وبلغت قضيَّتُه ، حمدتُه حمد مقرٍّ بربوبيته ، متخضِّعٍ لعبوديته ، متنصِّل من خطيئته ، متفرِّدٍ بتوحيده ، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تنجيه ، يوم يُشغَل عنْ فصيلته وبنيه .

ونستعينُه ونسترشده ونستهديه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، وشهدتُ له شهود مخلصٍ موقن ، وفرَّدْتُه تفريد مؤمن متيقِّن ، ووحَّدْته توحيد عبد مذعن ، ليس له شرك في ملكه ، ولم يكن له وليٌّ في صنعه ، جَلَّ عن مشير ووزير ، وعن عونٍ معين ونصيرٍ ونظير .

عَلِمَ فستر ، وبطن فخبر ، وملك فقهر ، وعُصي فغفر ، وحكم فعدل ، لم يزل ولن يزول ﴿ليس كمثله شيء﴾(١) ، وهو بعد كل شيء ربٌّ متعزِّزٌ بعزَّته ، متمكِّن بقوته ، متقدِّس بعلوِّه ، متكبِّر بسموِّه ، ليس يدركه

(*) قالوا: تذاكر قوم من أصحاب رسول الله ، ﷺ ، أي حروف الهجاء أدخل في الكلام؟ فأجمعوا على الألف . . فقال علي رضي الله عنه هذه الخطبة .

وقد نقلتها من كتاب «سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين علي رضي الله عنه» ، تأليف محمد رضا الحكيمي . ط ٦ ، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٤٠٤هـ .

فالمؤلف أو الجامع من الشيعة . . والله أعلم بصحة نسبة هذه الخطبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه ، إنما أوردتها هنا للعظة ، ولغرابة أمرها ، حيث إنها خالية من حرف الألف!

(١) سورة الشورى ، الآية: ١١ .

بصر ، ولم يُحِطْ به نظر ، قويٌّ منيع ، بصير سميع ، رؤوف رحيم .

عجز عن وصفه من يصفه ، وضلَّ عن نعته من يعرفه .

قَرُب فَبَعُد ، وبَعُدَ فقرب ، يجيب دعوة من يدعوه ، ويرزقه ويحبوه ، ذو لطف خفي ، وبطش قوي ، ورحمة موسعة ، وعقوبة موجعة . رحمته جنة عريضة مونقة ، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة .

وشهدتُ ببعثِ محمد رسولِه ، وعبده وصفيِّه ، ونبيِّه ونجيِّه ، وحبيبه وخليله . بعثه في خير عصر ، وحين فترة وكفر ، رحمةً لعبيده ، ومنَّةً لمزيده ، ختم به نبوَّته ، وشيَّد به حجَّته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، رؤوف بكل مؤمن ، رحيمٌ سخي ، رضيٌّ وليٌّ زكي ، عليه رحمـة وتسليم ، وبـركة وتكريم ، من ربٍّ غفور رحيم ، قريب مجيب .

وصيتُكم معشر من حضرني بوصية ربكم ، وذكَّرتُكم بسنةِ نبيِّكم ، فعليكم برهبةٍ تسكنُ قلوبَكم ، وخشيةٍ تُذْري دموعكم ، وتقيةٍ[1] تنجيكم قبل يوم . . تذهلكم ، يوم يفوزُ فيه من ثَقُل وزنُ حسنته ، وخفَّ وزنُ سيئته ، ولتكن مسألتكم وتملقكم[2] مسألةَ ذُلٍّ وخضوع ، وشكر وخشوع ، بتـوبـة وتـورُّع ، ونـدمٍ ورجوع ، وليغتنم كلُّ مغتنمٍ منكم صحته قبل سقمـه ، وشبيبته قبل هرمه ، وسعته قبل فقره ، وفَرْغَته[3] قبل شغله ، وحضره قبل سفره ، قبل تكبُّر وتهرُّم وتسقُّم ، يَمَلُّه طبيبه ، ويعرض عنه حبيبه ، وينقطع غَمْدُه ، ويتغير عقله ، ثم قيل : هو موعودك ، وجسمه

---

(١) التقيَّة : الخشية والخوف (المعجم الوسيط) .

(٢) الملَق : الدعاء والتضرع .

(٣) الفرغة : الواحدة من الفراغ .

منهـوك ، ثم جُدَّ في نزعٍ شديد ، وحضره كلُّ قريب وبعيد ، فشخص بصره ، وطَمِحَ نظرُه ، ورشح جبينه ، وعطف عَرْنِيتُه ، وسكن حنينه ، وحزنته نفسه ، وبكته عِرسه ، وحُفر رَمْسُه ، ويُتِّم منه ولده ، وتفرَّق منه عدده ، وقُسم جَمْعُه ، وذهب بصره وسمعه ، ومُدِّد وجُرِّد ، وعُرِّي وغُسل ، ونُشِّف وسُجِّي ، وبُسط له وهُيِّىء ، ونُشر عليه كفنه ، وشُدَّ منه ذقنه ، وقُمِّص وعُمِّم ، ووُدِعَ وسُلِّم ، وحُمِل فوق سرير ، وصُلي عليه بتكبير ، ونُقل من دورٍ مزخرفة ، وقصور مشيَّدة ، وحُجَر منجَّدة ، وجُعل في ضريح ملحـود ، وضيق مرصود ، بلبن منضود ، مسقَّف بجلمود ، وهيل عليه حفرُه ، وحُثي عليه مَدَرُه ، وتحقَّق حِذْرُه ، ونُسي خبره ، ورجع عنه وليُّه وصفيُّه ، ونديمُه ونسيبُه ، وتَبدَّل به قرينه وحبيبُه ، فهو حشوُ قبرٍ ، ورهين قفرٍ ، يسعى بجسمه دودُ قبره ، ويسيل صديده من منخره ، يَسحق تُرْبُه لحمه ، وينشف دمه ، ويرمُّ عظمهُ حتى يوم حشره ، فنُشر من قبره حين ينفخ في صور ، ويُدعى بحشر ونشور .

فثمَّ بُعثـرت قبـور ، وحُصِّلت سريرةُ صدور ، وجيء بكـل نبيٍّ وصـدِّيق وشهيد ، وتوحَّد للفصل قديرٌ بعبده خبير بصير ، فكم من زفرة تضنيه ، وحسرة تنضيه ، في موقف مهول ، ومشهد جليل ، بين يدي مَلِك عظيم ، وبكلِّ صغير وكبير عليم ، فحينئذ يُلجمه عَرَقُه ، ويحصره قلقُه ، عبْرَتُه غير مرحومة ، وصرختُه غير مسموعة ، وحججه غير مقبولة ، زالت جريدتـه ، ونُشرت صحيفتـه ، نَظر في سوء عمله ، وشَهدت عليه عينُه بنظره ، ويده ببطشه ، ورجلُه بخطوه ، وفرجُه بلمسه ، وجلده بمسه ، فسُلْسِلَ جيده ، وغُلَّت يده ، وسيق يُسحب وحدَه[1] ، فورد جهنم بكرب

(١) لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسي بغيره ، فكان أخف لألمه وعذابه ، وإذا كان وحده كانَ أشد ألمًا وأهول .

وشدة ، فظلَّ يعذَّب في جحيم ، ويُسقى شربة من حميم ، تشوي وجهه ، وتسلخ جلده ، وتضربه زبنية [١] بمقمع من حديد ، ويعود جلده بعد نضجه كجلد جديد ، يستغيث فتُعرض عنه خزنةُ جهنم ، ويستصرخ فيلبث حقبة يندم .

نعوذ بربٍّ قدير ، من شر كل مصير ، ونسأله عفو مَنْ رضي عنه ، ومغفرة مَنْ قبله ، فهو وليُّ مسألتي ، ومُنْجِحُ طلبتي ، فمن زُحزح عن تعذيب ربّه جُعل في جنته ، بقربه ، وخُلِّد في قصور مشيّدة ، ومُلِّكٍ بحورٍ عين وحفدة ، وطِيْفَ عليه بكؤوس ، أُسكن في حظيرة قُدُّوس ، وتقلَّب في نعيم ، وسُقي من تسنيم ، وشرب من عين سلسبيل ، ومُزج له بزنجبيل ، مختَّم بمسك وعبير ، مستديم للملك ، مستشعر للسُّرَر ، يشرب من خمور ، في روض مغدق ، ليس من يَصَّدَّعُ مَنْ شربه ، وليس يُنْزَف .

هذه منزلةُ مَنْ خشي ربَّه ، وحَذَّر نفسه معصيته ، وتلك عقوبةُ من جَحَد مشيئته ، وسوَّلت له نفسه معصيته ، فهو قولٌ فصلٌ ، وحُكْمٌ عدل ، وخبرٌ قصصٌ قص ، ووعظ نص ﴿**تنزيلٌ من حكيم حميد**﴾ [٢] ، نزل به روح قدس مبين ، على قلبِ نبيٍّ مهتد رشيد ، صلَّت عليه رسلُ سَفَرة ، مكرَّمون بررة ، عذتُ بربِّ عليم ، رحيم كريم ، من شرِّ كلِّ عدوٍّ لعين رجيم ، فليتضرَّع متضرِّعكم ، وليبتهل مبتهلكم ، وليستغفر كلُّ مربوب منكم لي ولكم ، وحسبي ربي وحده .

---

(١) الزبنية واحد الزبانية ، وهم عند العرب الشُّرَط ، وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها كما يفعل أهل الشُّرط في الدنيا . ومن أهل اللغة من يجعل واحد الزبانية : زباني .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٢ .

الرِّقَّة والبكاء*

لابن قدامة المقدسي

● يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا . ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطًا ، والتراب فراشًا ، ألا من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات .

(*) الرقة والبكاء/ تأليف موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف (يصدر عن دار القلم بدمشق إن شاءالله) .

والمؤلف عالم مشهور ، فهو صاحب «المغني» . . موسوعة الفقه الحنبلي ، وهو بالإضافة إلى علمه بالفقه وتصدره للفتيا كان عالمًا زاهدًا لينًا متواضعًا محبًّا للمساكين . ت ٦٢٠هـ .

يقول في مقدمة كتابه : «فإنني أحببت جمع أخبار أداوي بها قسوة قلبي ، وأستجلب بها دموع عيني ، فطلبت ذلك في مظانّه ، فلم أر أجلب له ، ولا أجمع لما أردت من أخبار الصالحين ، الذين تنزل الرحمة عند أذكارهم ، وتحيا القلوب بسماع أخبارهم ، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم ، فجمعت من أخبارهم ما يسَّر الله سبحانه جمعه . .» .

وقد وزع موضوعات كتابه ، أو حكاياته ، على العناوين التالية : طرف من صفات الصالحين ، طرف من أخبار الأنبياء عليهم السلام ، طرف من أخبار نبينا ، ﷺ ، الخلفاء الراشدون ، أخبار جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، أخبار طائفة من التابعين رحمهم الله ، أخبار الصالحين من بعد التابعين ، أخبار جماعة من الأولياء لم تعرف أسماؤهم ، أخبار متفرقة من فنون شتى .

ألا إن لله عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين ، وأهل النار في النار معذَّبين . شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة . صبروا أيامًا قليلة لعقبى راحة طويلة . أما الليل فصافُّون أقدامهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربِّهم : ربَّنا ربَّنا ، يطلبون فكاك رقابهم . وأما النهار فعلماء ، حلماء ، بررة ، أتقياء ، كأنهم القِداح ، ينظر الناظر فيقول : مرضى ، وما بالقوم من مرض! وخُولطوا ، ولقد خالطَ القومَ أمرٌ عظيم .

● خرج ملك من الملوك الى الخَوَرْنَق والسَّدير[١] ، في عام قد بكَّر وسْميُّه ، وتتابع وليُّه[٢] ، وأخذت الأرض زينتها من نَورٍ[٣] ربيع مونق ، فهو في أحسن منظر ، وأحسن مستنظر ، وأحسن مختبر ، بصعيدٍ كأن ترابه قِطعُ الكافور ، حتى لو أن قطعة ألقيت فيه لم تُتَرَّبْ[٤] . قال : وكان قد أُعطي فَتَاءَ السِّن[٥] ، مع الكثرة والغلبة والقهر . قال : فنظر ، فأبعد النظر ، فقال لجلسائه : لمن هذا؟ هل رأيتم مثل ما أنا فيه؟ هل رأيتم مثل ما أُعطيت؟ قال : وعنده رجل من بقايا حَمَلة الحجة ، والمضيِّ على أدب الحق ومنهاجه . قال : ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجته في عباده ، فقال : أيها الملك : إنك قد سألت عن أمرٍ أفتأذن بالجواب عنه؟ قال : نعم ، قال : أرأيت ما أنت فيه ، أشيء لم تزلْ فيه أم شيء صار إليك ميراثًا من غيرك وهو

---

(١) الخورنق والسدير قصران شهيران بناهما النعمان السائح ابن امرىء القيس بن عمرو اللخمي ، الذي ملك الحيرة من قبل الفرس في الجاهلية . مات سنة ١٩٨ ق . هـ .

(٢) الوسمي : مطر الربيع الأول ، والولي : المطر يسقط بعد المطر .

(٣) النَّوْر : الزهر الأبيض .

(٤) أي لم يصبها التراب .

(٥) الفَتَاء : من فَتِيَ يَفْتَى فتًى وفتاءً ، بمعنى غلبه في الفتوَّة .

زائـل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك ميراثًا من لدن غيرك؟! قال: فكذلك هو ، قال: أفلا أراك أنما أُعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلًا وتغيبُ عنه طويلًا وتكون غدًا بحسابه مرتهنًا؟ قال: ويحك! فأين المهرب؟ وأين المطلب؟ قال: إما أن تقيم في ملك تعمل فيه بطاعة الله ربِّك على ما ساءك وسرَّك ومضَّـك وأرمضـك[1] ، وإمـا أن تضـع تاجـك وتلبس أطـمارك وأمساحك[2] وتعبد ربَّك في هذا الجبل حتى يأتيك أجلك! قال: فإذا كان بالسَّحر فاقرع عليَّ بابي فإني مختار أحد الرأيين ، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيرًا لا تُعصى ، وإن اخترتُ فلواتِ[3] الأرض وقفرَ البلاد كنتَ رفيقًا لا تُخالف .

فقـرع عليه بابـه عنـد السَّحر ، فإذا هو قد وضع تاجه ، ووضع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهيَّأ للسياحة .

فلزما الجبل ، حتى أتتهما آجالهما . وهو[4] حيث يقول أخو بني تميم عديُّ بن زيد بن حماد العبادي[5]:

---

(١) مضَّه: آلمه وشَقَّ عليه ، وأرمضه: أوجعه .

(٢) الأطمار: جمع طِمْر: الثوب الخَلَق البالي . والأمساح: جمع مِسْح: الكساء من الشعر ، ويطلق على ثوب الراهب .

(٣) الفلوات: جمع فلاة: الأرض الواسعة المقفرة .

(٤) وهذا الملك هو السَّاطِرون . وكان من الجرامقة ، والعرب تسميه الضيزن . فهو الضيزن بن معاوية بن العبيد السليحي . وكان قد ملك الجزيرة إلى بلاد الشام ، وكثر جنده . وكان مواليًا للروم ، يقاوم الفرس . وسكنه في مدينة يقال لها الحَضْر ، وكانت بجبال تكريت ، بين دجلة والفرات . مات نحو ٣٠٤هـ .

(٥) شاعر ، من دهاة الجاهليين . كان من أهل الحيرة ، يحسن العربية والفارسية ، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى ، اتخذه في خاصته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب . . تزوج هند =

أيها الشامتُ المعيِّرُ بالدهـ ... ـر أنتَ المبرَّأ الموفور[١]

أم لديك العهدُ الوثيقُ من الـ ... أيام أم أنت جاهلٌ مغرور

من رأيتَ المنونَ خلَّدْنَ أم مَنْ ... ذا لديه من أن يُضامَ خفير[٢]

أين كسرى؟ كسرى الملوك أبو سا ... سان أم أين قبله سابُور[٣]

وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الرُّ ... وم لم يبق منهمُ مذكور

وأخو الحَضْرِ إذْ بناهُ وإذ دجْـ ... لةُ تُجبى إليه والخابور[٤]

شاده مرمرًا وجلَّله كِلْـ ... ساً فللطير في ذُراه وُكور[٥]

لم يهبه ريبُ المنون فبادَ الـ ... مُلْكُ عنه فبابه مهجور

وتذكَّرَ ربُّ الخورنق إذْ أشـ ... رفَ يومًا وللهُدى تفكير

سرَّه مالُه وكثرة ما يمـ ... لك والبحر مُعرضٌ والسَّدير[٦]

فارعوى قلبُه وقال: وما غِبْـ ... طةُ حيٍّ إلى الممات يصير[٧]

ثم أضْحوا كأنهم ورقٌ جفَّ ... فألوت به الصَّبا والدَّبور[٨]

= بنت النعمان بن المنذر، ووشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره، فسجنه، وقتله في سجنه بالحيرة. وعلماء العربية لا يرون شعره حجة، لأنه كان يسكن الحيرة، ويدخل الأرياف، فثقل لسانه، مات نحو ٣٥ ق.هـ. الأعلام ٥/٩ - ١٠. وانظر أخباراً طويلة عنه في الأغاني للأصبهاني ٢/٩٧ - ١٥٤.

(١) الموفور: التام من كل شيء. والمبرَّح: المتروك.

(٢) الخفير: الحارس (من خَفَره إذا أجاره وحماه).

(٣) ساسان وسابور من ملوك الفرس، قبل كسرى أنو شروان.

(٤) الخابور نهر في الجزيرة الفراتية. والحَضْر: مدينة قريبة من تكريت بالعراق.

(٥) الكلس: ما تُطلى به النُّزل وغيرها.

(٦) معرض: متسع.

(٧) ارعوى: كفَّ وارتدع.

(٨) ألوت به: ذهبت به. والصَّبا: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا.

ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ ـة وارتهمْ هناك القبور[١]

● خرج الزبير بن العوام بغَلس[٢] يريد أرضًا له ، فلما كان في بعض الطريق إذا هو بعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على عنقه قربة من ماء . فلما عرفه قال: لقد أغناك الله عن هذا وأرضاك بما خوَّلك وأعطاك ؛ فما يحملك على هذا؟ قال: إن ما تقوله حق ، ولكني لما رأيتُ هؤلاء الوفد سامعين لأمري ، مطيعين لي . . دخلتني لذلك نخوة ، فأردت أن أكسر هذه النخوة! ثم مال بالقربة إلى حجرة أرملة من الأنصار ، فأفرغها في جرارها!

● وعن مولى لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما أنا مع عثمان في يوم صائف ، إذ رأى رجلاً يسوق بَكْرَيْن[٣] ، وعلى الأرض مثل الفَراش من الحرِّ ، فقال عثمان: ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبْرِد ثم يروح؟ ثم دنا الرجل . . فإذا به عمر بن الخطاب! فقال مولى عثمان: هذا أمير المؤمنين! فقام عثمان ، فأخرج رأسه من الباب ، فأذاه نفح السَّموم[٤] ، فأعاد رأسه حتى حاذاه ، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال: بَكْران من إبل الصَّدقة تخلَّفا وقد مُضي بإبل الصدقة ، فأردت أن ألحقهما بالحِمى ، وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما .

فقال عثمان: يا أمير المؤمنين ، هلمَّ إلى الماء والظِّل ونكفيك . فقال: عُد إلى ظلِّك . فقال: عندنا من يكفيك ، فقال: عُدْ إلى ظلِّك ،

(١) الإمَّة: النِّعمة .
(٢) هو ظلمة الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .
(٣) البَكْر: الفتيُّ من الإبل ، والأنثى بَكْرة .
(٤) السَّموم: الريح الحارة ، أو الحرُّ الشديد النافذ في المسام .

ومضى . فقال عثمان : من أحبَّ أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى هذا . فعاد إلينا ، فألقى نفسه .

● في يوم أُحد قتل عاصم بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ رجلين هما ابنا سلافة بنت سعد . فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربنَّ في قحفه الخمر .

وفي خبر يوم الرجيع وغدر عضل والقارة قتلت هذيل عاصمًا وخبيبًا وزيد بن الدثنة . . وأرادوا رأس عاصم ليبيعوه من سلافة!

وكان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسّه مشرك ولا يمسَّ مشركًا أبدًا تنجُّسًا . فعندما ذهبوا ليحزُّوا رأسه ، منعته الدَّبْر ، وهي النحل . فلما حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسي فتذهبنَّ عنه ، فنأخذه .

فبعث الله السيل بالوادي ، فاحتمل السيل عاصمًا . . وأخذه! فكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمسَّ مشركًا أبدًا في حياته ، فمنعه الله بعد موته كما امتنع منه في حياته!

● عن خالد بن معدان قال : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجُمحي . فلما قدم عمر بن الخطاب حمص قال : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم؟

فشكوه إليه ـ وكان يقال لأهل حمص الكُوَيْفَةُ الصغرى لشكايتهم العمال ـ قالوا : نشكو أربعًا :

ـ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال : أَعْظِمْ بها! قال : وماذا؟ قالوا :

ـ لا يجيب أحدًا بليل .

قال : وعظيمة! قال : وماذا؟ قالوا :

ـ وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا .

قال : وعظيمة! قال : وماذا؟ قالوا :

ـ يَغْنِظُ[1] الغنظة بين الأيام ، يعني تأخذه الموتة!

قال : فجمع عمر بينهم وبينه وقال : اللهم لا تُفَيِّلْ[2] رأيي فيه اليوم . ما تشكون منه؟

ـ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال : والله إنْ كنتُ لأكره ذكره . ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ، ثم أخرج إليهم .

فقال : ما تشكون منه؟

ـ قالوا : لا يجيب أحدًا بالليل .

قال : إن كنتُ لأكره ذكره . إني جعلتُ النهار لهم والليل لله عز وجل .

قال : وما تشكون منه؟

ـ قالوا : له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه .

قال : ليس لي خادم يغسل ثوبي ، ولا لي ثياب أبدلها ، فأجلس حتى يجفَّ ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم من آخر النهار .

قال : ما تشكون منه؟

ـ قالوا : يغنظ الغنظة بين الأيام .

---

(١) أي يشرف على الهلاك ثم يفلت .

(٢) أي لا تضعف .

قال: شهدت مصرع خُبيب الأنصاري بمكة وقد بَضَعَتْ[١] قريش لحمه ، ثم حملوه على خشبة فقالوا: أتحبُّ أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحبُّ أني في أهلي وأن محمدًا شِيْك بشوكة ، ثم نادى: يا محمد! فما ذكرتُ ذلك اليوم وتركي نصرته إلا ظننت أن الله لا يغفر لي ذلك الذنب أبدًا . قال: فتصيبني تلك الغنظة .

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يُفَيِّلْ فراستي .

فبعث إليه بألف دينار فقال: استعن بها على أمرك .

فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك .

فقال لها: هل أدلك على خير من ذلك؟ ندفعها إلى مَنْ يأتينا بها أحوج ما نكون إليها؟

فقالت: نعم .

فدعا رجلاً من أهله يثق به ، فَصَرَّرها صُرَرًا ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان ، وإلى يتيم آل فلان ، وإلى مسكين آل فلان ، وإلى مبتلى آل فلان .

فبقيت منها ذُهيبة فقال: أنفقي هذه . ثم عاد إلى عمله .

فقالت امرأته: ألا تشتري لنا خادمًا؟ ما فعل ذلك المال؟

قال: سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

● قال ابن إسحاق في السيرة: خرج عبد أسود يوم خيبر في غنم له ، وكان أجيرًا لرجل من يهود ، حتى جاء رسول الله ، ﷺ ، فقال لبعض أصحابه: من هذا الرجل؟

---

(١) قطعت وشقت .

قالوا: رسول الله من عند الله .

قال: الذي في السماء؟

قالوا: نعم .

قال: فادنوني منه .

قال: فذهبوا به إلى رسول الله ، ﷺ ، فقال: أنت رسولُ الله؟

قال: **نعم** .

قال: الذي في السماء؟

قال: **نعم** .

قال: فأمره رسول الله ، ﷺ ، بالشهادة ، فشهد ، ثم استقبل غنمه ، فرمى وجوهها بالبطحاء ثم قال: اذهبي ، فوالله لا اتبعتُك أبدًا . فولَّت ، فكان ذلك آخرَ العهد بها .

قال: فقاتل العبدُ حتى استُشهد قبل أن يصلي سجدة واحدة . فأُتي به رسول الله ، ﷺ ، فأُلقي خلفه ، فالتفت إليه رسول الله ، ﷺ ، ثم أعرض عنه ، فقيل: يا رسول الله ، التفتَّ إليه ثم أعرضت عنه! فقال: **إن معه الآن لزوجتيه من الحور العين** . قال: واسم العبد: أسلم .

● عن عبدالله بن كثير قال: قدم بعض أمراء المدينة واليًا عليها ، قال: فأتاه علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله ـ وذكر نفرًا من قريش ـ فقال لهم: أيكم سعيد بن المسيب؟ قال: فقال له علي بن الحسين: إن سعيدًا يلزم مسجده ويخفف على الأمراء . قال: فأتيتني أنت ـ يعني علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب ـ والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبدالله ، يعني ابن عمر بن الخطاب ، وسمى أولئك النفر الذين أتوه من قريش ، ولم يأتني؟ والله لأضربنَّ عنقه ، والله لأضربنَّ عنقه ، ثم والله لأضربن عنقه .

قال علي بن الحسين: وضاق بنا المجلس حتى قمنا ، فأتيتُ سعيد بن المسيب ، فجلستُ إليه ، وذكرتُ له ما قال ، وقلت له يخرج إلى العمرة ، فقال: ما حضرتني في ذلك نية ، وإن أحب الأعمال إليَّ ما نويت . قال: فقلت: فتصير إلى منزل بعض إخوانك ، فقال: ما أصنع بهذا المنادي الذي ينادي في كل يوم خمس مرات؟ والله لا يناديني إلا أتيته . قلت: فتحوَّل عن مجلسك إلى بعض هذا المسجد ، فإنك إن طُلبت إنما تُطلب في مجلسك . قال: ولِـمَ أدع مجلسًا عوَّدني الله فيه من الخير ما عوَّدني؟ قال: قلت: أي أخي ، أما تخاف؟ قال: أما إذ ذكرتَ ما ذكرتَ فإن الله ليعلم أني لا أخاف شيئًا غيره ، ولكن أول ما أقول وأوسطه وآخره: حمد الله وثناء عليه وصلاة على محمد ، ﷺ ، وأسأل الله تعالى أن يُنْسِيَهُ ذكري .

قال: فمكث ذلك الأمير على المدينة ما شاءالله ، ثم عُزل عنها . قال: فخرج إلى الشام . فبينا هو ذات يوم على منزل من المدينة وغلامٌ له يوضِّئه ، إذ قال للغلام: أمسك! واسوأتاه مِنْ علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ، إني حلفت أن أقتل سعيد بن المسيب ، والله ما ذكرتُه في ساعة من ليل ولا نهار حتى ساعتي هذه! فقال له غلامه: أي مولاي ، أراد الله بك خيراً مما أردت بنفسك .

● أرسل عمر بن عبدالعزيز إلى صاحب الروم رسولاً ، فأتاه ، وخرج من عنده يدور . فمرَّ بموضع ، فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن! فسلَّم عليه ، فلم يردّ عليه السلام ، مرتين أو ثلاثًا .

فقال: وأنَّى بالسلام في هذا البلد؟

فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم .

فقال له: ما شأنك؟

فقال: إني أُسرت من موضع كذا وكذا، فأُتي بي إلى صاحب الروم، فعرض عليَّ النصرانية، فأبيتُ، فقال: إن لم تفعل سملتُ عينيك. فاخترتُ ديني على بصري. فسمل عينيَّ، وصيَّرني إلى هذا الموضع، يرسل إليَّ كل يوم بحنطة فأطحنها، وبخبزةٍ فآكلها.

فلما سار الرسول إلى عمر بن عبدالعزيز، فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغتُ من الخبر حتى رأيتُ دموعه قد بلَّت ما بين يديه. ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم:

أما بعد، فقد بلغني خبر فلان ابن فلان ـ فوصف له صفته ـ وأنا أقسم بالله لئن لم ترسل إليَّ به، لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندي.

فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعتَ. فدفع إليه كتاب عمر بن عبدالعزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجلَ الصالح على هذا، بل يبعث إليه به.

فأقمتُ أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم، فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره، أعرف فيه الكآبة. فقال: أتدري لم فعلتُ هذا؟ فقلتُ: لا ـ وقد أنكرتُ ما رأيتُ ـ فقال: إنه أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، فلذلك فعلتُ ما رأيت. فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف؟ وقد أَيستُ من بعثِه الرجل معي. فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته. فأرسل معه بالرجل.

● يقول الحسن البصري: والله لقد أدركتُ سبعين بدريًا لباسهم الصوف، لو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خَلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب.

ولقد رأيتُ أقوامًا كانت الدنيا أهونَ على أحدهم من التراب تحت قدميه .

ولقد رأيتُ أقوامًا يمسي أحدهم ما يجد عَشاءً إلا قُوْتًا ، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني ، لأجعلنَّ بعضه لله . فيتصدَّق ببعضه ، وإن كان هو أحوج ممن يُتَصَدَّقُ به عليه .

● كان يزيد الرقاشي إنْ دخل بيته بكى . وإن شهد جنازة بكى . وإن جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم . فقال له ابنه يومًا: كم تبكي يا أبتِ! والله لو كانت النارُ خُلقتْ لكَ ما زدتَ على هذا البكاء! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خُلقت النار إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن والإنس؟ أما تقرأ يا بني: ﴿سنفرغ لكم أيها الثَّقلان﴾(١)؟ أما تقرأ يا بني: ﴿يُرْسَلُ عليكما شُواظٌ من نار ونحاس فلا تنصران﴾؟ فجعل يقرأ حتى انتهى إلى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾(٢) . فجعل يدور في الدار ويصرخ ويبكي حتى غُشي عليه . فقالت أمه للفتى: يا بني ما أردتَ إلى هذا من أبيك؟ قال: إني والله إنما أردت أن أهوِّن عليه ، لم أرد أن أزيده حتى يَقْتُلَ نفسه!

● روى صاحب الإمام أحمد بن حنبل شيخ الإسلام محمد بن الحجاج المرُّوذي قال: قال لي أبو عبدالله يومًا: إني لأفرح إذا لم يكن عندي شيء!

---

(١) سورة الرحمن ، الآية: ٣١ .

(٢) وهي الآيات: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان . فإذا انشقَّت السماء فكانت وردة كالدِّهان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . هذه جهنم التي يكذِّب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ . سورة الرحمن ، الآيات: ٣٥ ـ ٤٤ .

وجاء ابنه الصغير بعقب هذا الكلام ، فطلب منه ، فقال : ليس عند أبيك قطعة ، ولا عندي شيء!

قال : واستعمل له خُف ، فجئته به ، فبات عنده ، فلما أصبح قال لي : قد تفكرتُ في أمر هذا الخف ـ أراه قال : عامة الليل ـ قد شغل عليَّ قلبي ، قد عُزِمَ لي أن لا ألبسه! كم ترى بقي؟ الذي مضى أكثر مما بقي . فدفع إليَّ خُفًّا له خَلَقًا فقال : اضرب على هذا الموضع رقاعًا وسدِّد خروقه . ثم قال : تدري منذ كم هذا الخف عندي؟ نحوًا من ست عشرة سنة! وإنما صار إلي وهو لبيس (أي مستعمل)!

● عن رجاء بن ميسور المجاشعي قال :

كنا في مجلس صالح المري يومًا وهو يتكلم ، فقال لفتى بين يديه : اقرأ يا فتى .

فقرأ الفتى : ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع**﴾[1] .

فقطع صالح عليه القراءة . قال : وكيف يكون لظالم حميمٌ أو شفيع والمطالِبُ له ربُّ العالمين؟! إنك والله لو رأيتَ الظالمين وأهل المعاصي يساقُون في السلاسل والأنكال[2] إلى الجحيم حفاةً عراة مسوَّدة وجوههم ، مزرقَّة عيونهم ، ذائبة أجسامهم ، ينادُون : يا ويلنا! يا ثبورنا[3]! ماذا نزل بنا؟ ماذا حلَّ بنا؟ أين يُذْهَبُ بنا؟ وماذا يُراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقامع[4] النيران ، فمرةً يُجَرُّون على وجوههم ، يُسحبون عليها منكبين ،

(١) سورة غافر ، الآية : ١٨ .

(٢) جمع نِكْل ، وهو القيد ، أو حديدة اللجام .

(٣) الثبور : الهلاك والفساد .

(٤) جمع مِقْمَع ، وهو ما يُضرب به ويُذَلَّل .

ومرةً يُقادون إليها مقرَّنين ، من بين باك دمًا بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت .

إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرًا لا يقوم له بصرك ، ولا يبيتُ له قلبك ، ولا يستقرُّ لفظاعةِ هوله على قرارٍ قدمُك .

ثم نحب وصاح : يا سوء منظراه! يا سوء منقلباه!

وبكى . وبكى الناس . فقام فتى من الأزد كان به تأنيث فقال : أكلُّ هذا في القيامة يا أبا بشر؟

قال : نعم والله يا ابن أخي ، وما هو أكثر! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم ، فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المدنف(١)!

فصاح الفتى : إنا لله! واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة! وأسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه! وأسفاه على تضييعي عمري في دار الدنيا .

قال : ثم بكى ، واستقبل القبلة فقال : اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك . اللهم فاقبلني على ما كان فيَّ ، واعفُ عما تقدَّم من فعلي ، وأقلني عثرتي ، وارحمني ومن حضرني ، وتفضَّل علينا أجمعين بجودك يا أرحم الراحمين . لك ألقيتُ معاقد الأيام من عنقي ، وإليك أنبتُ بجميع جوارحي ، صادقًا لذلك قلبي . فالويل لي إن لم تقبلني .

ثم غُلب ، فسقط مغشيًّا عليه ، فحُمل من بين القوم صريعًا .

فمكث صالح وإخوته يعودونه أيامًا ، ثم مات . والحمد لله .

---

(١) المدنف والدَّنف : هو من اشتد مرضه وأشفى على الموت .

فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له . فكان صالح كثيرًا ما يذكره في مجلسه فيقول : وبأبي قتيل القرآن ، وبأبي قتيل المواعظ والأحزان .

● عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال :

بينما أنا أطوف مع أبي حول البيت في ليلة ظلماء ، وقد رقدت العيون ، وهدأت الأصوات ، إذ سمع أبي هاتفًا يهتف بصوتٍ حزين شجي وهو يقول :

يا من يجيب دُعا المضطرِّ في الظُّلَم ... يا كاشف الضُّرِّ والبلوى مع الألم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... أدعو وعينك يا قيُّوم لم تنم
هب لي بجودك فضلَ العفو عن جُرُمي ... يا مَنْ إليه أشار الخلق في الحرم
إن كان عفوك لا يدركْه ذو سرف ... فمن يجود على العاصين بالكرم؟

قال : فقال أبي : يا بني أما تسمع صوت النادب لذنبه ، المستقيل[1] لربه؟! الحقه فلعلَّ أن تأتيني به .

فخرجتُ أسعى حول البيت أطلبه فلم أجده ، حتى انتهيت إلى المقام . فإذا هو قائم يصلي . فقلت : أجب ابن عمِّ رسول الله ، ﷺ . فأوجز في صلاته ، واتبعني . فأتيتُ أبي فقلت : هذا الرجل يا أبت .

قال له أبي : ممن الرجل؟

فقال : من العرب .

قال : وما اسمك؟

قال : مُنازل بن لاحق .

قال : وما شأنك؟ وما قصتك؟

---

(١) استقال : طلب أن يُقال ، أي أن يعفى عنه . واستقاله عثرته : سأله أن يصفح عنه .

قال: وما قصة من أَسْلَمَتْهُ[١] ذنوبه، وأوبقته[٢] عيوبه؟ فهو مُرْتَطِمٌ[٣] في بحر الخطايا.

فقال له أبي: على ذلك فاشرح لي خبرك.

قال له: كنت شابًّا على اللهو والطرب لا أفيق عنه. وكان لي والد يعظني كثيرًا ويقول: يا بني: احذر هفوات الشباب وسكراته، فإن لله سطوات ونقمات، ما هي من الظالمين ببعيد. وكان إذا ألحَّ عليَّ بالموعظة ألحَحتُ عليه بالضرب. فلما كان يومًا من الأيام، ألحَّ عليَّ بالموعظة، فأوجعته ضربًا، فحلف بالله مجتهدًا ليأتينَّ بيت الله الحرام، فيتعلَّق بأستار الكعبة، ويدعو عليَّ. فخرج حتى انتهى إلى البيت، فتعلق بأستار الكعبة وأنشأ يقول:

يا مَنْ إليه أتى الحُجَّاجُ قد قطعوا ... عرض المَهامِه من قرب ومن بُعُد[٤]
إني أتيتك يا من لا يُخَيِّبُ مَنْ ... يدعوه مبتهلاً بالواحد الصمد
هذا مُنازِلُ لا يرتدُّ عن عَقَقي ... فخذ بحقي يا رحمان من ولدي[٥]
وشُلَّ منه بحولٍ منك جانبه ... يا من تقدَّسَ لم يُولَد ولم يَلِدِ

قال: فوالله ما استتمَّ كلامه حتى نزل بي ما ترى. ثم كشف عن شقِّه الأيمن، فإذا هو يابسٌ.

---

(١) أي خذلته.

(٢) أوبقته: أهلكته وذللته.

(٣) ارتطم: تردَّى في الوحل. وارتطم في كذا: وقع وارتبك. وارتطم عليه الأمر: سُدَّت عليه مذاهبه فلم يجد منه مخلصًا.

(٤) المهامه: جمه مهمه: الصحراء البعيدة.

(٥) منازل اسم ابنه. والعقق: العقوق.

قال: فأُبتُ ورجعتُ، ولم أزل أترضَّاه وأخضع له وأسأله العفو عني، إلى أن أجابني أن يدعوَ لي في المكان الذي دعا عليَّ.

فحملتُه على ناقة عُشَراء[١]، وخرجتُ أقفو أثره، حتى إذا صرنا بوادي الأراك، طار طائر من شجرة، فنفرت الناقة، فرمت به بين أحجار، فرضخت رأسه، فمات. فدفنتُه هناك، وأقبلتُ آيسًا. وأعظم ما بي ما ألقاه من التعيير أني لستُ أُعْرَفُ إلا بالمأخوذ بعقوق والده.

فقال له أبي: أبشر فقد أتاك الغوث.

فصلى ركعتين، ثم أمره فكشف عن شقِّه بيده، ودعا له مرات يرددهن، فعاد صحيحًا كما كان! وقال له: إني لولا أنه قد كان سبقت إليك من أبيك في الدعاء لك بحيث دعا عليك لما دعوتُ لك.

قال الحسن: وكان أبي يقول لنا: احذروا دعوة الوالدين، فإن في دعائهما النماء والانجبار، والاستئصال والبَوار[٢]!

---

(١) العُشَراء من النوق ونحوها: ما مضى على حملها عشرة أشهر. جمع عِشار.

(٢) يبين المعنى في الجملة الأخيرة على تقدير محذوف. أي أن الخير والبركة بالإحسان إليهما وطاعتهما، والهلاك بعقوقهما وإيذائهما.

رؤوس القوارير*

لابن الجوزي

● اللغة العربية واسعة ، ويتصرف بالكلمة الواحدة بالحركات ، أو بالإعجام ، أو بقلب حرف منه . فمن الأخير قولهم : صاعقة وصاقعة ، وجذب وجبذ ، وما أطيبه وما أيطبه ، وربض ورضب ، واضمحل وامضحل ، وعميق ومعيق ، وسبسب وبسبس ، ولبكت الشيء وبلكته ، وسحاب مكفهر ومكرهف ، وشرخ الشباب وشخره (أي أوله) ، وماء سلسال ولسلاس ، ومسلسل وملسلس (إذا كان صافيًا) ، وكبكبت الشيء وبكبكته (إذا طرحت بعضه على بعض) .

(*) رؤوس القوارير في الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير/ لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي ، تصحيح أمين عبدالعزيز . القاهرة: مطبعة الجمالية ، ١٣٣٢هـ ، ٦٤ص .

اختصره مؤلفه من كتابه «المدهش» الذي هو مدهش حقًّا ، بما يحتويه من استنتاجات وغرائب ومعلومات لا تتوفر في غيره من الكتب ، وأضاف إليها إحدى وثلاثين خطبة رائعة! وسبب اختصاره ما قاله في مقدمته: «فإن كتابي الموسوم بالمدهش في الوعظ والمحاضرات غزر علمه ، وكبر حجمه ، فاستطاله الملول ، واستكثره المشغول ، فانتخبت هذا منه . . . » .

ثم يبين أن كتابه «المدهش» كان مثل جُونة العطار - وهي ما يحفظ فيها العطار أنواع العطورات - وأصناف الأباريز - وهي الحبوب - . . فأخذ من كل صنف من أصناف العطور شيئًا ، ومن أنواع الحبوب كذلك ، ثم مزج بعضه ببعض ، فخرج منه نوع عطر جديد ، أو نبت جديد ليس مثل سابقه . وذلك مثل أدوية متعددة في قوارير ، أخذ من كل دواء - أو من رأس كل قارورة - شيئًا ، ثم مزجه ببعضه البعض ، وحدث منه دواء لا يحصل من مفرد!

ومن هنا توضح عنوان كتابه: «رؤوس القوارير»!

وقد صدر الكتاب في طبعة غير هذه ، وصدر كذلك محققًا في القاهرة .

● ويقولون: صدر الإنسان ، ويسمونه من البعير: الكركرة ، ومن الأَسد: الزور ، ومن الشاة: القص ، ومن الطائر: الجؤجؤ ، ومن الجراد: الجوشن .

والثدي للمرأة ، وللرجل: ثندؤة . ولذوات الخُفِّ: مخلف ، ولذوات الظلف: الضرع ، ولذوات الحافر والسباع: الطُّبْي .

● ويفرقون في الأوطان ، فيقولون: وطن الإنسان ، وعطن البعير ، وعرين الأسد ، ووجار الذئب والضبع ، وكناس الظبي ، وعش الطائر ، وكور الزنابير ، ونافقاء اليربوع ، وقرية النمل .

● ويفرقون في المنازل ، فإن كان من مدر قالوا: بيت ، وإن كان من وبر قالوا: بجاد ، وإن كان من صوف قالوا: خباء ، وإن كان من شعر قالوا: فسطاط ، وإن كان من جلود قالوا: قشع ، وإن كان من غزل قالوا: خيمة .

● ويفرقون في الأصوات ، فيقولون: صهل الفرس وحمحم ، وشحج البغل ، ونهق الحمار ، ورغى البعير وجرجر وقبقب ، وأطت الناقة ، وثغت الشاة ويعرت ، وأثأجت النعجة ، ونب التيس ، وبغم الظبي ونزب ، وزأر الأسد ونأم ونهتَ ونأتَ ، ووعوع الذئب ، ونهم الفيل ، ورقح القرد ، وقبع الخنزير ، وضبح الثعلب ، ومأت السنور ، وفحَّت الأفعى ، ونضفت الحية ، ونعق الغراب ، وزقا الديك ، ونقت الدجاجة ، وصرصر البازي والصقر ، وصفر النسر ، وهدر الحمام وهدل ، وغرد المكاء ، وزبطت البطة ، وعندل البلبل ، ونقنقت النعامة ، وقطقط القطا ، ووطوط الخفاش ، وعزفت الجن .

● ويفرقون في الضرب ، فيقولون للضرب بالراح على الوجه:

صك ، وعلى مقدم الرأس: صقع ، وعلى القفا: صفع ، وعلى الخد ببسط الكف: لطم ، وبقبضها: لكم ، وعلى الذقن والحنك: وهز ، وعلى الجنب: وخز ، وعلى الصدر والبطن بالكف: وكز ، وبالركبة: زَبْن ، وبالرجل: ركل .

● ويفرقون في الجماعات ، فيقولون: كوكبة من الفرسان وكبكبة من الرجال ، وجوقة من الغلمان ، ولمة من النساء ، ورعيل من الخيل ، وصرمة من الإبل ، وقطيع من الغنم ، وسرب من الظباء ، وعرجلة من السباع ، وعصابة من الطير ، ورِجْل من الجراد ، وخشرم من النحل!

● ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهي خوان ، ولا كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب ، ولا خدر إلا إذا كانت فيه امرأة وإلا فهو ستر ، ولا للمرأة ظعينة إلا إذا كانت في الهودج ، ولا خاتم إلا إذا كان عليه فص .

● من تفكر في الحيوانات أدركه الدهش من حكمة الخالق سبحانه . . فلما جُعل رزق طائر الماء من الماء ، طُوِّل ساقاه ، فهو يقيم في ضحضاح ، فإذا رأى صيدًا خطا إليه ، ولو قُصرت قائمتاه كان حين سعيه يضرب الماء ببطنه فينفر الصيد .

والنملة إذا عجزت عن حمل شيء إلى بيتها استعانت بجنسها فأعَنَّها ، فإذا بلغت باب بيتها عدن ورفَّهنه عليها تكرمًا عن الأجرة!

والعصافير فيها عصبية ، إذا وقع فرخ أحدها اجتمعت حوله حتى تعلمه الطيران .

والطاووس يلقي ريشه في الخريف إذا ألقى الشجر ورقه ، فإذا

اكتسى الشجر اكتسى .
والفهد على جباسة خلقه يُصاد بالصوت الحسن .

ولما عزَّت نفس الببغاء زاحمت الآدميين في النطق وشابهتهم في تناول مطاعمها بيدِها . فالعجب لبهيم يتشبه بإنسان ، ولإنسان يتشبه بالبهيم!!

● ثلاثة كانوا بني عم في زمن واحد ، كل واحد اسمه علي ، ولهم ثلاثة أولاد كل واحد اسمه محمد ، والآباء والأبناء أشراف ، وهم علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن عبدالله بن العباس ، وعلي بن عبدالله بن جعفر .

● ومن العجائب: أربعة إخوة ، بين كل واحد وواحد عشر سنين ، وهم أولاد أبي طالب . فطالب أسنُّ من عقيل بعشر سنين ، وعقيل أسنُّ من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من علي بعشر سنين .

● سأل سائل: من أين دخلت الغفلة قلوب العباد؟ فقلت: من باب المخالفة ، فإذا رأت اليقظة تمكُّنها أعرضتْ!

● قيل لي: ما أحسن ارتجالك؟ فقلت: الطبع ينظم ، والذوق يزن ، والقريحة تتخيَّر ، واللسان يصقل ، والسمع يستشف ، والفهم يستعذب . وأنشدتُ:

بستاننا فياح ريحانه فواح
تفاحه نفاح لفاحه لفاح

جدوله سياح بلبله صياح
حمامه صداح أخلاقه ملاح
تحيا به أرواح

● ما هذه الغفلة وأنتم مستبصرون؟ ما هذه الرقدة وأنتم مستيقظون؟ كيف نسيتم الزاد وأنتم راحلون؟ أين من كان قبلكم ، ألا تتفكرون؟ أما رأيتم كيف نازَلهم نازلُ المنون؟ ﴿**فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجِعون**﴾(١) ، أتسكنون إلى سكنى دار ما تسكنون؟ لو حضرت القلوب لجرت من العيون عيون . كأنكم بالآلام قد اعترضت ، وبالأجسام قد انتقضت ، وبالأوصال قد اتصلت . . فرحم الله عبدًا أعتق نفسه من رق شهواتها ، ونظر لها قبل مماتها ، وادَّخر من صحته زادًا لقبره قبل أن يفوت زمن الاستدراك بوقوع الهلاك . . فكأنكم بالموت قد حلَّ . . ثم تقومون للحساب والجزاء والقصاص ، وإذا الخلائق قد حُشرت ، وإذا الصحائف قد نُشرت ، وإذا جهنم قد سيقت ، ومرارة الندم قد ذيقت ، فتتمنطق بكم حينئذ قبائحكم ، وتستنطق يومئذ عليكم جوارحكم ، وتنشر حين القضاء في الفضاء فضائحكم ، فيا خجل المقصرين ، ويا أسف المذنبين ، ويا حسرة المفرِّطين ، ويا سوء منقلب الظالمين .

● تنبَّه أيها الشاب لاغتنام العمل ، تيقَّظ أيها الكهل قبل خيبة الأمل ، بادر أيها الشيخ فكأن قد قيل رحل ، كأنك بالموت قد ألقاك صريعًا ، وبالندم قد أبكاك نجيعًا ، وبالأسف قد ضربك ضربًا وجيعًا ، وبملك الموت قد أقبل إليك سريعًا ، والجبين من العرق يرشح ، والطَّرْف من الفَرَق يسفح ، والروح في القلق تسبح ، وأنت تبسط كفًّا وتقبض كفًّا ، والملك يكفك عن التصرّف كفًّا ، وسفينة الحسرات في موج العبرات تتكفأ ، ثم يُرمى بك في جانب اللحد وتخفى ، وتلقى ما على الله لا يخفى ، فتبقى

(١) سورة يس ، الآية : ٥٠ .

في تلك الحفرة كالمأسور ، تمضي عليك الأزمان والعصور ، إلى أن ينفخ في الصور ، هذا وقد سمعت عذاب القبور ، ثم تقوم نادمًا يوم النشور ، والأرض تزلزل والسماء تمور ، والجلود تشهد والنار تفور ، والأسف شديد والكتاب منشور ، والسؤال دقيق ولستَ بمعذور ، والحساب قد فصل وحُصِّل ما في الصدور . .

الفلاكة والمفلوكون*
للدَّلجي

. . وبعد: فقد منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتابًا بديع المثال، منسوجًا على غير منوال، مخترعًا من غير سابقة مثال، مسلاة وتمثلاً وحكمة وعللاً، تتخذونه مفاكهة وامتثالاً، وتتصرفون به في ظنونكم ردًّا وأعمالاً . .

والمفلوك لفظة تلقيناها من أفاضل العجم، ويريدون بها: الرجل غير المحظوظ، المهمل في الناس، لإملاقة وفقره .

عبدالله بن سارة الشنتريني

كان شاعرًا ناثرًا ناظمًا ماهرًا، إلا أنه كان قليل الحظ . . وكان يبيع

(*) الفلاكة والمفلوكون/ تأليف أحمد بن علي الدَّلْجي . بغداد: مكتبة الأندلس، ١٣٨٥هـ، ١٩٢ ص . والمؤلف مصري له اشتغال بالفلسفة، نسبته إلى «دلجة» من صعيد مصر، ولم يكن محمود السيرة . . وكان متنقصًا للناس كثير الاستهزاء بهم . توفي بالقاهرة سنة ٨٣٨هـ . وقد وزع موضوعات كتابه على ثلاثة عشر فصلاً هي: تحقيق معنى المفلوك، خلق الأعمال وبيان أن لا حجة للمفلوك في التعلق بالقضاء والقدر، التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب، الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها، الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وبيان السبب في ذلك، مصير العلوم . . علية الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان، الفلاكة المالية والحالية، التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين، تراجم العلماء الذين تقلبت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل، النكبات الحاصلة للأعيان، أشعار المفلوكين أو من في معناهم وما فيها من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة، وصايا ختم بها الكتاب .

المحقَّرات ، وبعد جهد ارتقى إلى كتابة بعض الولاة . . ثم عمل في الوراقة بعدما كسد سوقها وخلا طريقها ، وفيها يقول :

أما الوراقة فهي أنكر حرفة — أوراقها وثمارها الحرمان
شبهتُ صاحبها بحالة إبرةٍ — تكسو العراة وجسمها عريان

توفي سنة ٥١٧هـ .

حسين بن محمد العز

الشاعر الضرير الإربلي ، تلميذ أفضل الدين الخلنجي . كان بصيراً بالعربية ، رأسًا في العقليات ، إلا أنه كان فيلسوفًا رافضيًّا ، تاركًا للصلاة ، رثَّ الهيئة ، زري الشكل ، قبيح المنظر . وابتُلي مع العمى بطلوعات وقروح ، وكان قذرًا لا يتوقى النجاسات . توفي سنة ٦٦٠هـ .

يحيى بن حبش السهروردي

يعرف بالشهاب المقتول . كان عارفًا بالفلسفة والحكمة ، مفرط الذكاء . . إلا أنه كان قليل الدين . . وكان دنيَّ الهمة زري الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له ثوبًا ولا جسمًا ولا يدًا من زهومة ، ولا يقص ظفرًا ولا شعرًا . ت ٥٨٧هـ .

محمد بن عبدالرزاق الرسعني

سافر إلى مصر في شهادة ، ثم عاد على حمار ، فسُرق حماره وما عليه في الطريق ، فرجع إلى القاهرة شاكيًا فلم يحصل له مقصود ، فخرج متوجهًا إلى دمشق ، فأتى ليسقي فرسه بالنهر ، فغرق ولم يظهر له خبر . ت ٦٨٩هـ .

الفخر الفارسي الفيروزابادي

كان بارعًا فصيحًا بليغًا متكلمًا . . إلا أنه كان بذيء اللسان ، كثير الـوقيعة في الناس ، لمن عرف ومن لم يعرف ، كثير الجرأة ، لا يفكر فيما يقول . . ت ٦٢٢هـ .

عبدالله بن أحمد ، ابن الخشاب

العالم المشهور في الأدب والنحو . . والنسب والفرائض والحساب ، كان فيه بذاءه[1] وقلة اكتراث بالمأكل والملبس ، زاد الحافظ الذهبي ناقلاً له عن ابن النجـار وجمال الدين القفطي أنه كان بخيلاً وسخًا قذرًا ، تبقى عمامتـه على رأسـه حتى تتقـطع مما يلي رأسـه من الوسخ ، ويرمي عليها العصافير ذرقها فيتركه على حاله ، ولم يتزوج قط ولا تسرى ، وكان يستقي بجـرة مكسـورة ويلعب بالشـطرنـج حيثـما وجـده ، ويقف على المشعبذ وأصحاب النرود ، ويستعير الكتاب فلا يعيده متعللاً بضياع كتبه!

مروان بن أبي حفصة

الشـاعر المشهور ، كان يمدح الخلفاء والبرامكة ومعن بن زائدة ، وكـان يحصـل له من الأمـوال شيء كثير جدًّا ، وكان مع ذلك من أبخل الناس ، لا يكاد يأكل من اللحم من بخله ، ولا يشعل في بيته سراجًا ، ولا يلبس من الثياب إلا الكرابيس والفرو الغليظ . خرج يومًا إلى المهدي فقالت امرأة من أهله : إن أطلق لك الخليفة شيئًا فاجعل لي منه شيئًا . فقال : إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم ، فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاها أربعة دوانيق . توفي سنة ١٨٢هـ .

---

(١) البذاءة : سوء الحال . وبذءُ الهيئة وبذها : رثُّها .

أحمد بن طارق الكركي

التاجر المحدث . قال ابن النجار: كان غاليًا في التشيع ، شحيحًا ، مقترًا على نفسه ، يشتري من لقم المكدين ، ويتبع المحدثين ليأكل معهم ، ولا يشعل في بيته ضوءًا ، وخلّف تجارة تساوي ثلاثة آلاف دينار . مات في سنة ٥٩٢هـ ، وبقي في بيته أيامًا لا يُدرى به ، وأكلت الفأرة أذنيه وأنفه .

شميـــم

علي بن الحسن بن عنبر ، الأديب النحوي المعروف بشميم ، الشاعر الحلي ، قدم بغداد وتأدب بها على أبي محمد بن الخشاب وغيره ، وحفظ كثيراً من أشعار العرب وأحكم اللغة العربية ، وقال الشعر الجيد ، إلا أن حمقه أخره . قال الذهبي : قرأت بخط محمد بن عبدالجليل الموماني ، قال بعض العلماء : وردت إلى آمد سنة ٥٩٤هـ فرأيت أهلها مطبقين على وصف هذا الشيخ ، فقصـدته ودخلت عليه ، فوجدته شيخًا كبيرًا نحيف الجسم ، وبـين يديه حملان مملوآن كتبًا من تصانيفه ، فسلمت عليه ثم قلت: إنما جئت لأقتبس من علومك شيئًا . فقال: أي علم تحب؟ قلت: الأدب . قال: إن تصانيفي في الأدب كثيرة ، وذلك أن الأوائل جمعوا أقوال غيرهم وبوَّبوها ، وأما أنا فكل ما عندي من نتائج فكري ، فإنني قد عملت كتاب الحـماسـة وأبـو تمام جمع أشعار العرب في حماسته ، وأنا فعلت حماسة من شعـري ، ثم سب أبا تمام ، وقال: رأيت الناس مجمعين على استحسان خمريات أبي نواس فعملت كتاب الخمريات من شعري ، ورأيتهم مجمعين على خطب ابن نبـاتـة فعملت خطبًـا . وجعل يزري بالمتقدمين ويَصف نفسه ، ويجهِّل الأوائل ويقول: ذاك الكلب قال كذا . قلت: فأنشدني شيئًا

من شعرك . فأنشدني من الخمريات له ، فاستحسنت ذلك ، فغضب وقال: ويلك! ما عندك غير الاستحسان؟ فقلت: فما أصنع؟ قال: تصنع هكذا . ثم قام يرقص ويصفق إلى أن تعب . ثم جلس يقول: ما أصنع ببهائم؟ ثم شطح في الكلام . .

قال ابن النجار: كان أديبًا مبرزًا في علم اللغة والنحو ، لكنه كان أحمق قليل الدين ، رقعًا ، يستهزىء بالناس ، ولا يعتقد أن في الدنيا مثله ولا يكون أبدًا!!

نفطويـــه

هو إبراهيم بن محمد بن عرفة . إمام في النحو . وكان رأسًا في مذهب داود الظاهري . وكان على جلالة قدره تغلب عليه سذاجة الملبس ، فلا يعنى بإصلاح نفسه ، وكان دميم الخلقة ، يؤيد مذهب سيبويه في النحو فلقبوه «نفطويه» . ت ٣٢٣هـ[١] .

الزبيـــدي

محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ ، كان له معرفة بالنحو والأدب . .

قال الحافظ الذهبي: كان صبورًا على الفقر ، متعففًا ، حنفي المذهب . وقال أبو الفرج بن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة قال: جلستُ مع الزبيدي من بكرة إلى قريب الظهر وهو يلوك شيئًا في فيه ، فسألته فقال: لم يكن لي شيء فأخذتُ نواة أتعلل بها . ت ٥٥٥هـ .

(١) المعلومات السابقة استقيتها من الأعلام ١/ ٥٧ ـ ٥٨ ، ط ٢ ، بينما يورد صاحب الكتاب السبب في لقبه «لرمامته وإذيته تشبيهًا بالنفط» .

أبو العلاء الهمذاني

هو الحسن بن أحمد الهمذاني العطار ، المقرىء ، الحنبلي ، شيخ مدينة همذان . أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات وتحصيل الأصول ، وبرع على حفاظ عصره في حفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير .

قال الحافظ الرهاوي : وكان من أبناء التجار ، وورث مالاً فأنفقه في طلب العلم ، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشيًا ، وكان يحمل كتبه على ظهره ، وسمعته يقول : كنت أبيت ببغداد في المساجد وآكل خبزًا أدهن ، وسمعت شيخنا أبا الفضل الأديب الهمذاني يقول : رأيت الحافظ أبا العلاء في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه لأن السراج كان عاليًا ، ثم نشر الله ذكره في الآفاق وعظم شأنه عند الملوك والعوام ، حتى إنه كان يمر في همذان فلا يبقى أحد يراه إلا قام ودعا له . توفي سنة ٥٦٩هـ .

الحسين بن عبدالله ، ابن الجصاص

البغدادي الجوهري التاجر السفار . يحكى عنه بله وتغفل . نظر مرة في المرآة فقال لصاحبه : ترى لحيتي قد طالت؟ قال : المرآة في يدك ، قال : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب!

ودخل يومًا على الوزير ابن الفرات فقال : عندنا كلاب يحرموننا نتام . فقال الوزير : لعلهم جِراء؟ فقال : بل كل واحد قدي وقدك .

وأراد أن يقبل يومًا رأس الوزير ، فقال له الوزير : إن فيه دهنًا ، فقال : سأقبله ولو أن فيه (. . .)!

ابــن ظفــر

هو أبـو عبـدالله محمـد الصقـلي ، له تصـانيف متعددة . . وشرح مقامات الحريري . ذكره العماد في الخريدة وقال : لم يزل يكابد الفقر حتى مات .

وقيل إنه زوج ابنته بحماة من غير كفء للضرورة ، فرحل بها الزوج عن حماة وباعها في بعض البلاد . توفي سنة ٥٧٥هـ .

ابن فارس اللغوي

هو أبـو الحسـين أحمـد بن فارس بن زكريا . . كان إمامًا في علوم شتى ، وخصوصًا اللغة . . من نظمه :

إذا كنـت في حاجـة مرسـلاً وأنـت بهـا كلـف مغـرم
فأرسـل حكـيـمًا ولا توصـه وذاك الحـكـيـم هو الـدرهـم

وله :

سقـى همذانَ الغيثُ لست بسـائـل سوى ذا وفي الأحـشـاء نار تضرَّم
ومـالي لا أصفِّـي الـدعـاء لبلدةٍ أفـدتُ بها نسيـانَ ما كنتُ أعـلم
نسيـتُ الـذي أحسـنتُـه غير أنني مديـنٌ ومـا في جوف بيـتي درهـم

وله :

وقـالـوا كيف حالـك قلت خير تُقـضـى حاجـة وتـفـوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصـدر قلنـا عسى يومًـا يكـون لها انفـراج
نديـمـي هرتي وأنـيس نفسي دفـاتـر لي ومـعـشق في السراج

توفي سنة ٣٩٠هـ .

أحمد بن محمد ، ابن الخياط

الشاعر الذي طاف البلاد وامتدح الناس . . دخل مرة إلى حلب وهو رقيق الحال لا يقدر على شيء ، فكتب إلى ابن حبوس الشاعر المشهور:

لم يبــق عنــدي ما يبــاع بحــبــةٍ وكــفــاك من منــظري عن مخبري
إلا بقــيــة ماءِ وجــهٍ صنــتُــهــا من أنْ تُبــاعَ وأيــن أيــن المشــتري؟

توفي سنة ٥١٧هـ .

محمد بن طاهر المقدسي

نقل السمعاني عن أبي الحسن الكرخي حكاية خرج منها أن المقدسي كان في غاية الفقر ، وملخصها أن الحال أعوزته وهو يكتب الحديث ، ولم يبق معه غير درهم ، وهو محتاج إلى كاغد وإلى خبز ، فتردد بين الأمرين يومًا وثانيه ، فلما كان اليوم الثالث قال: لم يبق إلا الخبز ، فإني إن اشتريت به كاغدًا لا أقدر على النسخ لأجل الجوع . فوضعه في فيه وخرج ليشتري به ، فاتفق أنه ابتلعه ، فأخذه الضحك! فلقيه أبو طاهر الصانع فسأله عن سبب ضحكه فكتمه إياه ، فألح عليه فامتنع ، وأخيرًا أخبره بالحال ، فحمله إلى البيت ، وتسبب له في دراهم كثيرة .

مبرمـــان

هو أبو بكر بن محمد العسكري . أخذ عن المبرد ، وتصدَّر بالأهواز ، وشرح كتاب سيبويه ولم يتمه . قال الذهبي : كان وضيع النفس ، يأخذ من الطلبة . . ويتنقل بالتمر فيحذف بنواهُ الناس . ولقبه المبرد مبرمان لكثرة سؤاله له . ت ٣٢٧هـ .

أبو الحسن الربعي

مرَّ يومًا بسكران ملقى على قارعة الطريق ، فحلَّ سراويله ، وجلس على أنفه ، وجعل (. . .) وينشد :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار!

القالي

أبو الحسن علي بن أحمد بن علي القالي . كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان كلفًا بها ، فدعته الحاجة إلى بيعها ، فباعها ، فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد فيها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن القالي المذكور:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها ... فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكنْ لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل جفوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... ودائع من رب بهن ضنين

الحريري

القاسم بن علي . . صاحب المقامات . كان غنيًّا . . وكان دميم الخلقة بخيلاً ، مولعًا بنتف ذقنه! ولما حضر بغداد حضر إليه ابن حكينا الشاعر المعروف بالبرغوث ، فلم يجده على ما كان في ظنه ، فنظم أبياتًا منها :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالشان وقد ... ألجمه في العراق بالخرس

أحمد بن الحسين ، ابن الخباز

نحوي من الموصل . كان من علماء النحو وفرسانه ، أديبًا ، لطيف الروح ، عذب العبارة ، حسن النظر ، كثير الاطلاع والحفظ . قال ابن هشام مصنف المغني فيما وجدته بخطه : وكأنه كان غير منصف من أهل زمانه ، وقد وقفت له على عدة تآليف يشكو فيها حاله ، فمن ذلك قوله في خطبة كتابه الذي سماه «الفريدة في شرح القصيدة» وهي قصيدة أبي عثمان سعيد الشهير بابن الدهان : «فإن أصبت فمن فضل الله الرحيم وإن أخطأت فمن الشيطان الرجيم ، ومن علم حقيقة حالي عذرني إذا قصرت بأن عندي من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه ، ولو أن ما بي بالجبال لهدها ، وبالنار أطفأها ، وبالماء لم يجر ، وبالناس لم يحيوا ، وبالدهر لم يكن ، وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر ، وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي ، وأن لا يزيدني على بلواي ، فإني كلما أردت خفض العيش صار مرفوعًا ، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعًا ، والله المستعان في كل حال ، ومنه المبدأ وإليه المآل» .

ابن الدهان

هو ناصح الدين أبو محمد سعيد ، المعروف بابن الدهان ، النحوي البغدادي . شارح كتاب الإيضاح والتكملة ، وكتاب اللمع لابن جني ، وكان يفضل على أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعاصرين له ، انتقل إلى الموصل قاصدًا الوزير جمال الدين الأصفهاني المعروف بالجواد ، وكانت كتبه ببغداد ، واستولى الغرق في تلك السنة على البلد فغرقت كتبه ، وكان خلف داره مدبغة ، ففاضت بالغرق إلى بيته ، فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق ، فأرسل من أحضرها له

وكان قد أفنى عمره فيها ، فأشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح ما أمكنه فيها ، فبخرها باللادن ، ولازمها بالبخور إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلًا لادنًا ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى . توفي سنة ٥٦٩هـ .

* * *

قال أحدهم :

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى ... كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم حظ من الجهل والغنى ... وصار لنا حظ من العلم والفقر

وقال آخر:

لا تحقرن أديبًا راق رونقه ... عن الفصاحة إما راحٍ في شمل
فالسكر العسلي الحلو من قصب ... والنرجس البابلي الغضّ من بصل

وقال غيره :

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يسر وقد كنتَ ذا عسر
فقد كشف الإثراء عنك خلائقًا ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وقال آخر:

وإذا المسافر آب مثلي مفلسًا ... صفر اليدين من الذي رجاه
وخلا من الشيء الذي يهديه للـ ... إخوان عند لقائهم إياه
لم يفرحوا بقدومه وتثقلوا ... بوروده وتكرَّهوا لقياه
وإذا أتاهم قادمًا بهدية ... كان السرور بقدر ما أهداه!

القول في البغال*

للجاحظ

● قال سليمان بن علي(١) لخالد بن صفوان(٢) ، ورآه على حمار: ما هذا يا أبا صفوان؟ قال: أصلح الله الأمير ، ألا أخبرك عن المطايا؟ قال: بلى . قال: الإبـل للحمل والزَّمْل ، والبغال للأسفار والأثقال ، والخيل للطَّلب والهرب ، والبراذين للجَمال والركوب ، وأما الحمير فللدَّبيب والمَرْفق .

(*) القول في البغال/ لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حققه وعلق عليه ووضع الفهارس شارل بلا . القاهرة: مكتبة مصطفى الحلبي ، ١٣٧٥هـ ، ١٧٨ص . (مكتبة الجاحظ) .
وقد صنفه مؤلفه بعد كتاب «الحيوان» ، ويعد من آخر مؤلفاته . ووزع موضوعاته على أربعة عشر بابًا هي:
ذكـر ركـوب الأشراف البغال ، ما جاء من نوادر وأشعار في البغال ، أخلاق البغال ، ذكر الانتفاع بالبغال في البريد ، ذكر شأن البغال في الشعر ، ما قالوا في طول عمر البغل ، تشبيه الأسد بالبغل ، ضربهم المثل في البغل ، مدح البغال وذمها ، ما جاء من الشعر في ذم البغل ، ما قالوا من الشعر في عقم البغل ، ما جاء في الكوادن ، ذكر ركوب نساء الأشراف البغال ، ذكر أخبار ومسائل شتى .

(١) هو سليمان بن علي بن عبدالله بن عبـاس ، عم أبي العبـاس السفاح ، ولي البصرة وعمان والبحرين ، وتوفي سنة ١٤٦هـ .

(٢) من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم . توفي حوالي سنة ١٣٥هـ .

● وكان مروان أبو السِّمط[1] يركب بغلة له بالبصرة ، لا يكاد يفارقها ، فقال الجمَّاز[2] وهو يهجوه :

اجتمع الناسُ وصاحوا الحريقْ ... بباب عثمان وسوقِ الرقيق
فجاء مروانُ على بغلةٍ ... فأنشد الشِّعر فأطفَا الحريق

● وقال آخر يهجو رجلاً لبخله :

يا حابس الرَّوث في أعفاج بغلته ... شُحًّا على الحبِّ من لقط العصافير[3]

● وقدَّموا إلى سليمان بن عبدالملك جَدْيًا سمينًا ، فقال لأبي السِّربال - وكان من مجانين الأعراب -: كُلْ مِنْ شحم كُليته فإنه يزيد في الدماغ ، فقال: لو كان الأكل من كُلى الجدي يزيد في الدماغ ، كان رأس الأمير أعظم من رأس البغل[4]!

● وقف الهيثم بن مطهَّر الفأفاء[5] على باب الخيزران[6] ينتظر رجلاً يخرج من عندها ، فبعث إليه عمر الكلوذاني : قد نُهينا أن نجعل ظهور دوابنا مجالس ، فانزل عن ظهر دابتك ، فالأرض أحمل لثقلك . فقال للرسول: إني أنتظر رجلاً قد حان خروجه . فبعث إليه : أن انزل عن دابتك ، فإذا خرج صاحبك فاركب والحق به . فقال للرسول: أعلمه أني أعرج ، وأنا مع هذا رجل مُثْقَل باللحم ، ولا آمن أن يسبقني الرجل سبقًا بعيدًا فلا ألحقه .

---

(١) هو الشاعر المعروف بمروان الأصغر . كان يعيش في عصر الواثق والمتوكل .
(٢) هو محمد بن عمرو الجماز ، شاعر بصري معاصر للجاحظ .
(٣) الأعفاج هي لذوات الحافر كالمصارين لذوات الخف والظلف .
(٤) وإنما قال «الأمير» لأن سليمان كان يومئذ ولي عهد .
(٥) شاعر في عصر المهدي .
(٦) هي أم موسى الهادي وهارون الرشيد . ت ١٧٤هـ .

فردَّ الرسول فقال: يقول لك: إن أنت نزلت، وإلا أنزلناك صاغرًا. فقال الهيثم: قل له: إن كنتَ إنما تنظر للبغل فهو حبيس في سبيل الله، إن أنزلتني عنه لم أقضمه حبة شعير شهرًا، فَسَلْهُ الآن أيُّها أحبُّ إليه: ركوبي له ساعة، أو حرمان الشعير شهرًا؟! فلما جاءته الرسالة قال: ويلكم هذا شيطان، دعوه..

● وقال بعضهم في تشبيه الشيء بالشيء، وهذا شعر ينبغي أن يحفظ:

وهيَّجَ صوتَ النائحات عشيةً ... نوائحُ أمثالُ البغال النوافر
يمخِّطْنَ أطراف الأنوف حواسرًا ... يُظاهرنَ بالسَّوءات هُدْل المشافر[1]
بكى الشَّجْوَ ما دون اللَّهى من حُلوقها ... ولم يبك شجوًا ما وراء الحناجر

وما سمعنا في صفة النوائح المستأجرات، وفي اللواتي ينتحلن الحزن، وهن خليات البال، بأحسن من هذا الشعر.

● وقال من يذمُّ البغال: البغل كثير التلوُّن، به يُضرب المثل، وهو مع هذا قتَّال لصاحبه. قال ابن حازم الباهلي[2]:

مالي رأيتكَ لا تدو ... م على المودة للرِّجال
متبرِّمًا أبدًا بمن ... آخيتَ ودك في سفال
خُلقٌ جديد كلَّ يو ... م مثلُ أخلاق البغال

● وقال عثمان بن الحكم: كان عندنا في الحي فتى ولَدَتْهُ امرأة مذكَّرة

(١) أهدل: مسترخي المشفر.
(٢) شاعر بصري سكن بغداد. وأبياته هذه من قصيدة قالها في صديق له نال مرتبة من السلطان، فجفا ابن حازم بعد ذلك.

لرجل مؤنث ، فما رأيتُ ولا سمعتُ بخلق رديٍّ من أخلاق البغال إلا وقد رأيتُه فيه(١)!

● ومما اشتُقَّ من اسم البغل: «الدرهم البغليّ»(٢).

وفي بني تغلب: «رأس البغل» وهو رئيس من رؤسائهم ، وهو الذي كان إبراهيم بن هانىء الخليع(٣) نسب إليه .

وإذا كان الإنسان عظيم الرأس لقبوه «رأس البغل» .

و«البغلات» جَوار من رقيق مصر ، نتاج ما بين الصقالبة وجنس آخر ، والواحدة منهن يقال لها «بغلة» . ولهن أبدان وشحم وجدارة!

● وما ذكر من شأن البغال في الشعر قول الشاعر:

جعل ابنُ حزمٍ حاجبين لبابه ... سبحان من جعل ابن حزم يُحْجَب(٤)
وعجبتُ أن ركب ابنُ حزمٍ بغلةً ... وركوبه فوق المنابر أعجب!

● وقال بعضهم:

وإني إذا ما المرء آثَرَ بَغْلَهُ ... على نفسه آثرتُ نفسي على بغلي
وأبذله للمستعيرين لا أرى ... له عِلَّةً ما دام ينقاد في الخيل

---

(١) وقال في كتابه الحيوان ١/١٠٣ (ط عبدالسلام هارون ٣٨ - ١٩٤٣م): وشرُّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المضادة . . كابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال ، فإنه يكون أخبث نتاجًا من البغل ، وأفسد أعراقًا من السمع ، وأكثر عيوبًا من العسبار ، ومن كل خلق خلق!

(٢) نسبة إلى يهودي ضرب تلك الدراهم ، وكان يعرف برأس البغل . . وقدرت سعته بسعة الراحة ، وبعقد الإبهام .

(٣) شاعر معاصر للجاحظ ، كان ماجنًا خليعًا .

(٤) يعني بابن حزم: أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، استعمله سليمان بن عبدالملك على المدينة ، فهجاه الأحوص بشعر كثير .

قال أهل التجربة : ليس في جميع الحيوان الذي يعايش الناس أطول عمرًا من البغل ، ولا أقصر عمرًا من العصفور . وظنوا أن ذلك لكثرة سفاد العصفور ، وقلة ذلك من البغل . قالوا : ولذلك وجدنا طول الأعمار في الرهبان وأصحاب الصوامع خاصة ، وفي الخصيان عامة .

● قالوا : وكل شيء يولد ويربَّى في منازل الناس ، من طائر وسبع وبهيمة ، إذا تحوَّل صاحب الدار لم يتحول معه منها شيء ، فآثرت الأوطان على صاحب الدار ، إلا الكلب ، فإنه يؤثره على وطنه ويموت دونه ، ويصبر على جفائه وإقصائه .

● وأنشد إبراهيم بن داحة[1] لرجل ذهب عني اسمه ، قصيدة وصف فيها أعمار الحيوان التي تعايش الناس ، فقال لأخيه :

عزمتُ على ذمِّ البعير موفَّقًا ... وأن ليس في المركوب أجمعُ من بغل
وأن اقتناء الإبْلِ موقٌ وحرفة ... يبيت على يُسرٍ ويغدو على ثُكل
وبين المنايا والبراذين نسبةٌ ... وكلُّ نتاج الناس خيرٌ من الإبل
وقلتُ وشاهدتُ البغال وغيرها ... فأحمدتُها في العمر والهَرِم المُبلي
وليس لها بذخُ الخيول وكِبْرُها ... ولا ذِلَّةُ العَيْر الضعيف عن الرَّحْل
ومؤنته في الصيف والشَّتْو واحدٌ ... ولا خير في المُؤْنات من حامل الكَلِّ
ولا تُرْكَبُ الأرماك والحِجْرُ دونها ... لدى المَصْدِ والبغلاتُ تُركب كالبغل[2]
وفي البغل في كل الأمور مَرَافقٌ ... ومركبُ قاضٍ أو شيوخ ذوي فضل
فيركبها والخيل محدقةٌ به ... ويؤثرها يوم المباهاة والحَفْل

(١) لعله ابن مغنية كانت لعبدالله بن طاهر ، واسمها داحة . قاله المحقق .

(٢) المصد : الهضبة العالية . . والمطر .

وقــد جاوزت في السَّــوم كلَّ مثمَّن   من الرائع المنسوب والخامل النَّذْل[١]
يفــوت همالـيــج الــبراذين سيرُهــا   على قِحَـة الأعيـار من شَبَه النَّجْل[٢]

● ألا ترى أن الكلب والسِّنَّور إذا ضُربا صاحا ، وكذلك الأسد والنمر والثعلب والفهد وابن آوى؟ ولو ضربت فرسًا أو بغلاً أو حمارًا بعصا لم يصح ، وإن كان يجد فوق ما يجد غيره من الألم؟!

(١) النذل: الخسيس المحتقر .
(٢) القحة: صلابة الحافر .

الكنز المدفون والفُلْك المشحون*

لجلال الدين السيوطي

- كلُّ ضارب بفمه يقال له يلدغ ، وكلُّ ضارب بمؤخره يقال له يلسع ، وكلُّ قابض بلسانه يقال له ينهش .

- يقال : أعوذ بالله من العيمة والغيمة والأيمة . العيمة : شهوة اللبن بإفراط زائد ، والغيمة : العطش الشديد ، والأيمة : طول العزبة .

(*) الكنز المدفون والفلك المشحون : دائرة معارف ، أو ، الكشكول / جلال الدين السيوطي . بيروت : مؤسسة النعمان للطباعة والنشر ، ١٤١٢هـ ، ٤٠٨ص .
هذا الكتاب موسوعة في النوادر والغرائب في جميع العلوم والفنون . . وهي في مجموعها تقييدات من مطالعات الإمام السيوطي . . حيث يبدو أنه كلما مرَّ بشيء غريب دوَّنه في ورقة ، حتى تجمعت له هذه الموسوعة .
وفي هذا الكتاب فوائد وألغاز وحكم وحكايات وأشعار وتواريخ وإسلاميات نادرة وغريبة حقًا . . لكنها غير مرتبة موضوعيًا . . ولذلك يصعب الاهتداء إلى معرفة ما كتب حول موضوع معين في هذا الكتاب . ولو أنه رُتِّب ، أو عُملت له رؤوس الموضوعات المطلوبة ، أو الفهارس والكشافات ، لحصلت الفائدة المرجوة .
لكن يؤخذ عليه أنه يحتوي أيضًا على أخبار لا تصدق ، بل فيه خرافات وأساطير عن الأمم السابقة . . كما يورد المؤلف اجتهادات لبعض العلماء هي غريبة في بابها!
والطبعة المشار إليها سيئة ، والعناوين الجانبية غير دقيقة ، بل هي مضلَّة في أحيان كثيرة .
وقد حاولت ترتيب «أندر» نوادرها في موضوعات متشابهة . . كما اخترتُ منها الفقرات القصيرة ، ولم أعبأ بالطويل منها بالرغم من أهميتها . . إلا أن أقتطف منها ، وأشيرَ إلى تكملتها في الصفحات الموجودة فيها في الهامش .

- يقال لولد الفرس مهر ، ولولد الحمار جحش ، ولولد الناقة حوار ، ولـولـد البقرة عجل ، ولولد المعز جدي ، والأنثى عناق ، ولولد الضائنة حَمَل ، والأنثى رخل ، ولولد الشاة سخلة ، ولولد الظبي خشف ، ولولد الأرنبة الخرنق ، ولولد الثعلبة التتفل ، ولولد الخنزير الخنوص ، ولولد القرد الفشة ، ولولد الضبع الفرغل ، ولولد الأسد الشبل والحفص ، ولولد الفأر الدرص ، ولولد الضب الحسل ، والسمع ولد الذئب من الضبع ، ولولد النعام رأل ، ولولد الحبارى النهار .

- يقال للدائرة المحيطة بالقمر الهالة ، وللدائرة المحيطة بالشمس الطفاوة .

- الأطيط صوت اليقظان ، والغطيط صوت النائم .

- سميت القافلة قافلة تفاؤلاً بقفولها ، أي رجوعها .

- البركة النَّماء والبقاء ، ومنها بركة الماء لبقاء الماء فيها . وتبارك ربُّنا أي دام .

- فُرِّق بين الصنم والـوثن بأن الصنم ما عُمـل من حجر أو تمر أو غيره ، والوثن ما صُوِّر في كتاب أو حائط أو بساط أو غيره .

- البَيْض كله بالضاد المعجمة ، إلا بيظ النمل ، فإنه بالظاء .

- سمي البطل بطلاً لأن الدماء تبطل عنده فلا يأخذ بثأرها لشدة مَنَعَته ، وقيل : لأن همم الشجعان تبطل عند مصادمته في الحروب .

- الذباب مشتق من اسمه ذب آب ، أي : ذهب وعاد .

- ما الفرق بين السخي والكريم والبخيل واللئيم؟

قال النيسابوري : الذي يجمع ويمنع ولا يشفع ولا ينفع هو اللئيم .

والذي يجمع ويمنع ويشفع ولا ينفع هو البخيل .
والذي يجمع ولا يمنع ويشفع وينفع هو السخي .
والذي يفعل الفعل لنفع غيره بلا نفع يعود عليه هو الكريم . ولهذا لا يقال لله تعالى سخي ، بل يقال: كريم جواد .

ـ سميت البنت جارية لأنها أسرع جريًا في قلوب الآباء من الأبناء ، لرأفتهم وشفقتهم عليهن .

ـ العيلم ذكر السلاحف ، والعلجوم ذكر الضفادع ، والعنظب ذكر الجراد ، والخرب ذكر الحبارى ، واليعقوب ذكر الحجل ، والشيهم ذكر القنافذ ، والخزز ذكر الأرانب ، والظليم ذكر النعام ، والضيون ذكر السنانير ، والحيقطان ذكر الدراج ، والعضرفوط ذكر العظاء ، والحنظب ذكر الخنافس ، والصديح ذكر البوم ـ ويقال هو الصدى ـ واليعسوب ذكر النحل .

ـ والأنثى من الحجل تسمى سلفة ، والأنثى من الثعالب تسمى ثرملة وثعلبة ، والأنثى من الوعول أروية ، وثلاث أراوي ، وأربع أراوي إلى عشر ، فإن جاوزتها فهي الأروى . والأنثى من القرود تسمى قشبة وقردة ، والأنثى من الأرانب تسمى عكرشة ، والأنثى من العقبان عقبة ، والأنثى من الأسد لبوة ، والأنثى من العصافير عصفورة ، ومن النمر نمرة ، ومن الضفادع ضفدعة ، ومن البراذين برذونة ، وما أشبه ذلك .

ـ القدُّ: هو الشقّ طولاً ، والقطع: هو الشقُّ عرضًا .
ـ العرب تقول: مطايب اللحم ، وأطايب الفاكهة .
ـ فرقٌ بين النفس الزاكية وبين النفس الزكية: النفس الزاكية التي لم تذنب ، والنفس الزكية التي أذنبت ثم تابت .

- نفد بكسر الفاء بمعنى فرغ ، وبفتحها: حرق .
- الفهم: العلم بمعنى الشيء عند سماعه ، والذكاء: سرعة الفهم ، والبلادة: جمود الذهن .
- يقال: تفرقوا شذر مذر وشغر بغر ، وهما بمعنى واحد .
- فرقٌ بين التمني والترجي ، بأن الترجي طلبُ ما يمكن وقوعه ، والتمني طلب ما يمكن وقوعه وما لا يمكن وقوعه .
- فرقٌ بين الهم والغم ، بأن الهمَّ لأمرٍ ينتظر وقوعه وذهابه ، والغم لأمر واقع أو لخير فات .
- الحليم: هو المفضي عن الشيء المزعج فضلاً وكرمًا .
- العواصف: الرياح المهلكة في البر ، قال تعالى: ﴿**ولسليمان الريحَ عاصفةً تجري بأمره**﴾[١] . والقواصف: الرياح المهلكة في البحر ، قال تعالى: ﴿**فيرسلَ عليكم قاصفًا من الريح فيُغرقكم بما كفرتم**﴾[٢] .
- السَّلام: التحية ، والسِّلام: الحجارة السود ، والسُّلام: عروق بظاهر الكف .

الكَلام: النطق ، والكِلام: الجراح ، والكُلام: الأرض الصُّلبة .
الحَلْم: الفساد ، والحِلْم: احتمال الأذى ، والحُلم: ما يراه النائم .
الصَّرة: الجماعة ، والصِّرة: البرودة ، والصُّرة: ما يربط فيه الشيء .
القَسط: الجور ، والقِسط: العدل ، والقُسط: نوع من البخور .
العَرف: الرائحة ، والعِرف: العدل ، والعُرف: المعروف .
الجَد: أبو الأب ، والجد: ضد الهزل ، والجُد: البئر القديمة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية: ٨١ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية: ٦٩ .

القَمة : فضلة الأسد ، والقِمة : قِمة الجبل طرفُه ، والقُمة : كناسة البيت .
الظَّلم : بريق الأسنان وشدة بياضها ، والظِّلم : ذكر النعام ، والظُّلم : ضد العدل .
البَر: الرجل المحسن ، والبِر: الإحسان ، والبُر: القمح .
الوَقر: الصمم ، والوِقر: الحمل الثقيل ، والوُقر: الوقار .
الخَط : الكتابة ، والخِط : الطريق ، والخُط : النصيب[١] .

ـ سمي السراب سرابًا لأنه يسرب ، أي يجري .
ـ كنية الأسد: أبو الحرث ، وأبو فراس ، وأبو حفص ، وأبو الأبطال ، وأبو الأخياس ، وأبو الزعفران ، وأبو العباس ، وأبو شبل .
كنية البرغوث: أبو طامر ، وأبو الوثاب ، وأبو عدي .
كنية الثعلب: أبو الحصين ، وأبو النجم ، وأبو نوفل .
كنية الجرادة: أم عوف .
كنية الجرذ: أبو جوَّال ، وأبو راشد ، وأبو العدرج .
كنية الديك: ابو حسان ، وأبو حماد ، وأبو سليمان ، وأبو عقبة ، وأبو مدلج ، وأبو المنذر ، وأبو نبهان ، وأبو اليقظان .
كنية الذئب: أبو جعدة ، وأبو حدقة ، وأبو ثمامة ، وأبو جاعد ، وأبو رعلة ، وأبو سلعامة ، وابو حبلة ، وأبو العطلس ، وأبو كاسب .
كنية الصقر: أبو المنهال ، وأبو الأصبع ، وأبو شجاع ، وأبو الحمراء ، وأبو عمر ، وأبو عمران .
كنية العقرب: أم عريط ، وأم ساهر .

---

(١) انظر الباقي في ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩ .

كنية العنكبوت: أبو خيثمة، وأبو قشعم، والأنثى أم قشعم.

كنية الفرس: أبو شجاع، وأبو مضي، وأبو طالب، وأبو مدرك، وأبو المنجى.

كنية النمل: أبو مشغول.

كنية الهدهد: أبو الأخبار، وأبو ثمامة، وأبو الربيع، وأبو روح، وأبو سجاد، وأبو عباد[١].

● ذمَّ أعرابي رجلاً فقال: إن سأل ألحف، وإن سُئل سوَّف، وإن حدَّث حلف، وإذا وعد أخلف، وإذا صنع أتلف، وإذا طبخ أقرف، وإذا سامر نشَّف، وإذا نام خوَّف، وإذا همَّ بالفعل الجميل توقَّف. ينظر نظر الحسود، ويُعرض إعراض الحقود. بينما هو خِلٌّ ودود إذا هو خصم لدود. وضيفه جائع، وشره شائع، وسره ذائع، ولونه فاقع، وجفنه دامع، ودياره بلاقع، رديء المنظر، سيء المخبر، يبخل إذا أيسر، ويهلع إذا أعسر، ويكذب إذا أخبر. إن عاهد غدر، وإن خاصم فجر، وإن حمل أوقر، وإن خوطب نفر.

● قيل: أقصر الليالي ليلة المحب في حالة مسامرة محبوبه، وأطولها ليلة المهجور، ثم ليلة المريض، ثم ليلة المسافر إذا قرب من منزله.

● قال الأصمعي: رأيت شخصًا من الأعراب لا يزال يجمع الجلود، فقلت له يومًا: ما تصنع بهذا؟ فقال: الجلود لا تستغني عنها العرب، أصلها سقاء، ثم إن حاربوا فَوِقاء، وإن جاعوا فشِواء، وإن اختلفوا فحذاء!

---

(١) انظر الباقي ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

● كان لبعض العرب امرأتان: إحداهما جميلة والأخرى دميمة، وكان يحب الدميمة، فقالت له الجميلة يومًا وهي تعاتبه: إنك لتحقرني وتؤثر فلانة وإنها لكرياء رتياء كرشاء دقراء وقصاء زعراء غوراء رتقاء سفعاء خنساء، وتدعني وإنني لنفحاء لفاء حقباء هيفاء جيداء فرعاء بيضاء وطفاء قمراء وعجاء حوراء عيناء قنواء شماء رجاء.

● تظلَّم أحدهم من عامله فقال: ما ترك فضة إلا فضَّها، ولا ذهبًا إلا أذهبه، ولا بزًّا إلا بزَّه، ولا غلَّة إلا غلَّها، ولا غنمًا إلا غنمها، ولا فرسًا إلا افترسه، ولا عقارًا إلا عقره، ولا ضيعة إلا ضيَّعها، ولا سيدًا إلا استبدَّ به.

* * *

● لِمَ جعل الله الكفار أكثر من المؤمنين؟

قيل: ليريهم أنه مستغن عنهم وعن طاعتهم كلهم، لأن أعداءه أكثر من أوليائه، وأيضًا ليظهر عزَّ المؤمنين، لأن الشيء إذا قلَّ وجوده عزَّ، وأيضًا ليريهم قدرته أنه حفظ الحبيب بين الأعداء الكثيرة، وأيضًا ليبين لنا أن النصر من عنده، وأن القليل يغلب الكثير بقوته وعنايته.

● الفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يود زوال نعمة المحسود ولا يتمنى غيرها، والغبطة هو أن يتمنى الإنسان أن يكون له مثله من غير أن تزول نعمته عنه، فهذه مباحة وتلك خطرة.

● موانع الإرث سبعة، ضابطها: عش لك رزق. فالعين: عدم الاستهلال صارخًا، والشين: الشك، واللام: اللّعان، والكاف: الكفر، والراء: الرِّق، والزاي: الزنا، والقاف: القتل.

خُلقنا لأمر لو علمنا خفيَّه ... لما حبَّ منا المرءُ ليلى ولا لُبنى

ولكنْ جهلنا فاستراحت نفوسنا وما تلك إلا راحةٌ تعقب الحزنا

● ما الحكمة في كسوة الكعبة سواداً؟

قيل: لأن لسان حالها يقول: كانت أنبياء الله تطوف حولي ففقدتهم ، فلبست السواد حزنًا عليهم!

● ما الحكمة في أن البيت يُجعل على يسار الطائف؟

قيل: لأن القلب في جهة اليسار فيكون مما يليه ، وقيل: إن من طافه يأتي يوم القيامة متعلقًا به كما طافه بشماله ، وبيمينه الصحيفة!

● فرقٌ بين الأذان والإقامة في التثنية والإفراد ، ليُعلم أن الأذان إعلام لورود الوقت والإقامة أمارة لقيام الصلاة ، ولو سُوِّي بينهما لاشتبه الأمر في ذلك وصار سببًا لأن يفوت كثيراً من الناس صلاة الجماعة إذا سمعوا الإقامة فظنوا أنها الأذان . والحكمة أيضًا في إفراد الإقامة وتثنية الأذان أن الأذان إعلام الغائبين ، فيكرر ، فيكون أبلغ في إعلامهم ، والإقامة إعلام للحاضرين فلا حاجة إلى تكرارها ، وإنما كرر لفظ «الإقامة» لأنها هي المقصودة .

● لم سمي الشهيد شهيدًا؟

قيل: لأن الله تعالى يشهد له بالجنة . وقيل: إن ملائكة الرحمة يشهدونه عند الموت . وقيل: إنه شهد له بخاتمة الخير بظاهر حاله . وقيل: لأن عليه شاهدًا بكونه شهيدًا وهو الدم .

● فرقٌ بين الرحمة والمغفرة ، أن المغفرة محو الذنوب ، والرحمة إفاضة الإحسان .

● الخوف على أنواع : فالخوف للمذنبين ، والرهبة للعابدين ، والخشية للعالِمين ، والوجد للمحبين ، والهيبة للعارفين .

فخوف المذنبين من العقوبات ، وخوف العابدين من فوت ثواب العبادات ، وخوف العالِمين من الشرك الخفي في الطاعات ، وخوف المحبين فوت اللقاء في الخلوات ، وخوف العارفين الهيبة والتعظيم ، وهو أشد الخوف ، لأنه لا يزول أبدًا ، وسائر هذه الأنواع إذا قوبلت بالرحمة واللطف سكنت .

● هاتان الآيتان تجمع كل واحدة منهما حروف المعجم :

الأولى : قوله تعالى : ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أَمَنة نعاسًا يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسُهم يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهليَّة يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كلَّه لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هٰهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتليَ الله ما في صدوركم وليمحِّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصّدور**﴾(١) .

والأخرى قوله تعالى : ﴿**محمد رسولُ الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزرَّاع ليغيظ بهم الكفار وعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا**﴾(٢) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٤ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

● مما يُقرأ مقلوبًا: دام علا العماد . طالب بلاط . قمر يرمق . رمح أحمر . كمالك تحت كلامك . أرض خضرا . مودتي لعلي تدوم . سيف نفسي . عيد بديع .

● ليس شيء من الطير يلغ إلا الذباب .

● أربعة يحيضون: الآدمي ، والضبع ، والأرنب ، والوطواط .

أول كتاب صُنِّف في الإسلام كتاب ابن شريح في الآثار وحروف التفاسير بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصاغاني باليمن ، ثم الموطأ للإمام مالك بن أنس بالمدينة ، ثم جامع سفيان الثوري ، ثم شرعت الناس في التصانيف بعد ذلك .

● قال الصولي: الناس يرون كلَّ سادسٍ يقوم بأمر هذه الأمة منذ أول الإسلام لابد أن يخلع :

أولهم النبي ، ﷺ ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم الحسن خلع .

ثم معاوية ، ثم يزيد ، ثم معاوية ، ثم مروان ، ثم عبدالملك ، ثم عبدالله بن الزبير ، خلع وقتل .

ثم الوليد ، ثم سليمان ، ثم عمر بن عبدالعزيز ، ثم يزيد ، ثم هشام ، ثم الوليد بن يزيد خلع .

ثم أتى الله بالدولة العباسية:

أولهم السفاح ، ثم المنصور ، ثم المهدي ، ثم الهادي ، ثم الرشيد ، ثم الأمين ، خلع وقتل .

ثم المأمون ، ثم المعتصم ، ثم الواثق ، ثم المتوكل ، ثم المنتصر ، ثم المستعين ، خلع وقتل .

ثم المعتز ، ثم المهتدي ، ثم المعتمد ، ثم المعتضد ، ثم المكتفي ، ثم المقتدر ، خلع وقتل(١).

● أعرق الناس في الوزارة: أبو علي بن الحسين بن القاسم عبدالله بن سليمان بن وهب . كان أبو علي وزير المقتدر ، والقاسم وزير المعتضد ، وسليمان وزير المهدي ، وبعده للمعتمد .

● أطول الخلفاء عمرًا: القادر ، بلغ ثلاثًا وتسعين سنة ، ولم يصحَّ عن خليفة غيره أنه تعدى التسعين . وأقصرهم معاوية بن يزيد لم يجاوز العشرين سنة ، وكانت ولايته أربعين يومًا!

● حسابُ الشهر والسنة يعرف بالقمر ، وحساب الأسبوع واليوم يعرف بالشمس .

● لم سميت أمنا حواء بهذا الاسم؟ قيل: لأنها خلقت من شيء حي!

● أول من بنى المدارس في الإسلام الوزير نظام الملك قوام الدين الحسن بن علي الطوسي ، بنى المدرسة النظامية ببغداد .

● في الصحابة ثلاثة مهاجرون أنصاريون: ذكوان بن عبدالقيس ، وعقبة بن وهب ، والعباس بن عباد .

● الفرق بين العشق والشوق ، أن العشق يسكن باللقاء ، والشوق يزداد باللقاء!

---

(١) انظر الباقي ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

● أربعة إخوة ولّوا الخلافة لا يعلم غيرهم : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام بنو عبدالملك .

وأما الثلاثة إخوة : فالأمين ، والمأمون ، والمعتصم بنو الرشيد .

والمنتصر ، والمعتز ، والمعتمد بنو المتوكل .

والمكتفي ، والمقتدر ، والقاهر بنو المعتضد .

والراضي ، والمتقي ، والمطيع بنو المقتدر .

● فرق بين الكاهن والعرَّاف ، أن الكاهن يخبر عن الماضي ، والعرَّاف يخبر عن المستقبل .

● سمي الحجاز حجازًا لأنه حجز بين تهامة ونجد ، وقيل : لانحجازه بالحرار الست : حرة واقم ، وحرة راجل ، وحرة ليلى ، وحرة وبرة ، وحرة بني سليم ، وحرة النار .

● لم سميت قريش قريشًا؟

قيل : من القرش ، وهو الكسب والجمع ، لتكسبهم وتجمعهم بعد التفرق ، وقيل : سموا باسم دابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلى تسمى القرش ، والتصغير للتعظيم!

● ليلة بويع فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولد فيها خليفة : هي ليلة الرابع عشر من ربيع الأول عام سبعين ومائة : توفي فيها الهادي ، وبويع للرشيد ، وولد له المأمون .

● لا يُعرف فيمن شهد بدرًا ثلاثة : أبٌ وجد وابن ، إلا يزيد بن الأخنس السلمي ، وابنه معن بن يزيد ، وأبوه الأخنس!

* * *

● وصية من شيخ عارف بالوقائع: الشيخ لا يُخاشَن، وصاحب الحق لا يُشاتَم، والنَّحس لا يُقدَّم، والفاجر لا يُجامل، والغائب لا يُشتم، والمصاب لا يُشمت، والكذاب لا يُعاشر، والنمام لا يُسارر، والخائن لا يُدخَل، والعدوُّ لا يُغفل عنه ولا يُنام، والفاسق لا يُسامر، والخير لا يُؤخَّر، والدعاء لا يُترك.

● قال كسرى لأصحابه: أيُّ شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر. قال كسرى: الشح أضرُّ من الفقر، لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح لا يشبع أبدًا.

● قال رجل لبنيه: يا بَنيَّ أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة يحب أن يتحمَّل لها، فيستعير من أخيه دابته ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه.

● نظر رجل من الحذاق إلى رجل من جهال الناس عليه ثياب حسنة ويتكلم ويخطىء، فقال له: تكلم على قدر ثيابك، أو البس على قدر كلامك.

● قيل: دخل عبدالملك بن صالح على هارون الرشيد، فتلقاه الحاجب من الباب وقال له: إن أمير المؤمنين قد أصيب في هذه الليلة بولد، وولد له بقية الليلة ولد، فهنىء وعزِّ. فلما دخل عليه قال: سرَّ الله أمير المؤمنين فيما ساءه، ولا ساءه فيما سرَّه، وجعل هذه بهذه ثوابًا للشاكر وجزاء للصابر.

● الأكل على ثلاثة أنحاء: مع الفقراء بالإيثار، ومع أهل الدنيا بالأدب، ومع الإخوان بالانبساط.

● قال بعض الحكماء : توقوا البرد في أوله وتلقوه في آخره ، فإنه يفعل بالأجساد كما يفعل بالأشجار: أوله يحرق وآخره يورق .

● ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود ، والحسود ، وحديث عهد بغنى ، وغني يخشى الفقر ، وطالب رتبة يقصر قدره عنها ، وجليس لأهل الأدب وليس منهم .

● كما أن الأجسام تعظم في العين يوم الضباب ، كذلك تعظم الذنوب عند الإنسان في حال الغضب .

● أربعة أشياء القليل منهن كثير: المرض ، والدَّين ، والذنب ، والعداوة .

● سبب الغضب: هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها .

وسبب الحزن: هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها .

والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارج ، والحزن يتحرك من خارج إلى داخل . فلهذا يَقْتُل الحزن ولا يقتل الغضب ، لكمون الحزن وبروز الغضب .

* * *

ـ الصبر على مضض الأخ خيرٌ من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة .

ـ أفضل ما ادخرتَ التقوى ، وأجمل ما لبستَ الورع ، وأحسن ما اكتسبت الحسنات .

ـ لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح .

ـ جلوسك مع الصالحين دليلُ رشادك .

ـ لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث : تصغيره ، وتعجيله ، وستره .

- نظر زاهد إلى باب ملك فقال : بابٌ حديد ، وموت عتيد ، ونزع شديد ، وسفر بعيد .
- رؤي على قبر: نِعمَ المسكن لمن أحسن .
- ستُساق إلى ما أنت لاق .
- إن من الفساد إضاعة الزاد .

لا الفقر عار ولا الغنى شرفٌ ولا سخاء في طاعةٍ سَرَفُ
مالك إلا شيءٌ تقدِّمه وكل شيء أَخَّرته تَلَفُ

- السكوت عن الأحمق جوابه .
- لا تحقر الفقير الشريف ولا ترغب في الغني الدنيء .
- مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها .
- الغادر كمين لا يؤمَن .
- الكلام الحسن من مصائد القلوب .
- لكل شيء سبب ، وسبب المحبة الهدية .
- البس من الثياب ما لا تحتقر فيه ولا تشتهر به .
- ما الخلاص إلا بالإخلاص .
- كن مشغولاً بما أنت عنه مسؤول .
- شرّ الناس من نصر الظالم وخذل المظلوم .
- ثمرة الشجاعة الأمن من العدو .
- تفقَّد أمر عدوك قبل أن يمتدَّ باعه .
- زوال الدول في تقديم السفَّل .
- إذا ارتفع الشريف تواضع ، وإذا ارتفع الوضيع تكبَّر .
- إذا طلبتَ العز فاطلبه في الطاعة .

* * *

المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة*

لابن جني

- جعفر بن علبة الحارثي: الجعفر: النهر. والعلبة: قدح الراعي من جلد.
- الشميذر الحارثي: الشميذر: السريع الخفيف.
- الحريش بن هلال القُريعي: الحريش: دويبة أكبر من الدودة على قدر

(*) المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة/ صنعة أبي الفتح عثمان بين جني. دمشق: مكتبة القدسي والبدير، ١٣٤٨هـ، ١٩٢٩م، ٧٣ص.

الغريب في هذا الكتاب أن يعمد مؤلفه إلى بيان معنى أسماء هؤلاء الشعراء وليس ترجمتهم! وما السبب في اختيار هذا الموضوع بذاته؟ وما معنى أن يكون هذا الاختيار لشعراء الحماسة دون غيرهم؟

لكن المؤلف يؤكد لك في أول سطر من كتابه بقوله: «وينبغي أن تعلم أن في ذلك علمًا كثيرًا وتدربًا نافعًا، وستراه بإذن الله».

لقـد شرح ابن جني ديوان المتنبي، وأرجـوزة أبي نواس، وشرح كتاب التعريف لأبي عثمان المازني، وكتب في القراءات الشاذة، وكتب في العروض والنحو والصرف.

وإذا كان المتنبي يقول إن ابن جني أعرف بشعره منه.. فإن الحماسة كان لها نصيب كبير من اهتمامه. فقد شرح ديوان الحماسة، وأعرب ما استصعب من أبياتها، ثم أفرد كتابًا في اشتقاق أسماء شعرائها بإسهاب.

لقد كان من أئمة الأدب والنحو. ولد بالموصل، وتوفي ببغداد عام ٣٩٢هـ. وكان أبوه مملوكًا روميًا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي.

وطبع كتابه هذا طبعات حديثة في بيروت: دار الكتاب العربي. وطبعة ثانية منقحة في الدار نفسها ١٤٠٣هـ. وإنما أوردت هنا نماذج مما ندر من الأسماء، أو غَرُبَ من التفاسير. والله الموفق.

الإصبع لها قوائم كثيرة ، وهي التي يسميها الناس: دخال الأذن . وقريع : تصغير تحقير لأقرع !

- ابن زيابة التيمي : زيابة: من الأزيب وهو النشاط . وتيم : من تيَّمه الحب ، أي ذلَّله .
- عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي : عمرو: مفرد عُمور الإنسان ، والعمر: البقاء . ومعدي كرب: من عداه الكَرْب ، أي تجاوزه وانصرف عنه . وزبيد: تصغير زبد ، والزبد: العطاء .
- قيس بن الخطيم الأوسي: قيس: من قاس الشيء بالشيء يقيسه قيسًا . وسمي الخطيم لضربة كانت قد خطمت أنفه . وأوس: الذئب ، والأوس: العطية .
- عنترة بن الأخرس المَعْني: العنتر والعنترة: الذباب الأزرق . ومَعْنُ الشيء: اليسير .
- الأحوص بن محمد: الحوص: ضيق العين كأنها مخيطة!
- الطرماح بن حكيم: الطرماح: الطويل ، وطرمح البناء إذا أطاله .
- سبرة بن عمرو الفقعسي: السبرة: الغداة الباردة .
- جزء بن كليب الفقعسي: جزء: من جزأتُ الشيء أجزؤه جزءًا إذا أخذت جزءًا منه .
- عمرو بن شأس: الشأس والشأز: المكان الناتىء الغليظ .
- أبو حنبل الطائي: يقال: فرو حنبل إذا كان قصيراً . والنون أصلية ، والكلمة رباعية .
- أبو النشناش: نشنش الطائر ريشه إذا نتفه وألقاه ، والنشنشة أيضًا هي الخشخشة .
- رجل من شعراء حمير في قتل علقمة . . . حمير: عَلَم مرتجل وليس جنسًا ،

وهــو قبيلة فلذلك لم تصرف ، وزعم ابن الكلبي أنه كان يلبس حللاً حمراء . والعلقمة: المرارة .

- حسـان بن نشبـة: حسَّـان: «فَعْلان» من الحسّ وليس بـ «فَعَّال» من الحُسْن . يدل على ذلـك منعهم إياه من الصرف ، ولــو كان فعَّـالاً لانصرف ، كعبَّاد وحمَّاد .

ونشبة: اسم من أسماء الذئب ، سمي بذلك لإنشابه أظفاره في الفريسة .

- عقيل بن عُلَّفة المري: عقيل: يمكن أن يكون «فعيلاً» بمعنى «مفعول» أي معقول . والعُلَّف: ثمر الأراك ، الواحدة: عُلَّفة .

- العباس بن مرداس: المرداس: حجر يُردس به - أي يُرمى به - ويُصك .

- عبد الشارق بن عبدالعزى الجهني: الشارق: اسم صنم لهم ، ومثله عبد يغوث وعبد ود ونحو ذلك .

ويجوز أن يكون الشارق من قولهم: عبدالشارق ، وهو قرن الشمس . أما العزى فهو اسم صنم ، وهو تأنيث الأعز .

- عروة بن الـورد: العـروة للمزود والجوالق ونحوها[١] ، والعروة أيضًا: القطعة الجيدة من الكلأ . والورد: الفَرس يُضرب إلى الحمرة .

- هدبة بن الخشرم: هدبة: مفرد الهدب ، وهي للثوب . والخشرم: جماعة النحل ، وهو أيضًا للثؤل والدبر .

- بعض بني جهينة: جهينة: من الجهن ، وهو غلظ الوجه .

- شمعلة بن أخضر بن هبيرة: الشمعلة: الناقة السريعة ، ومنه اشمعل في أمره: أي جَدَّ ومضى . وهبيرة: تصغير هبرة ، وهي القطعة من اللحم ،

---

(١) أي لربطها وتوثيقها .

وسيف هبار: أي قطاع للحم .

- محرز بن المُكَعْبر الضبي : كعبرتُ الزرع : إذا قطعت كعابره وهي عُقَد أنابيبه .
- أبو ثمامة بن عاذب الضبي : الثمامة : نبتة ضعيفة .
- قُبيصة بن النصراني الجرمي : قَبَص الشيء إذا أخذه بأطراف أصابعه كالتراب وغيره .
- أدهم بن أبي الزعراء : الزعراء : القليلة الشعر .
- قَتادة بن مسلمة الحنفي : قتادة : ضرب من العضاه (شجر) . ومسلمة : من سلمت . والحنيف : العادل من دين إلى دين آخر .
- الأخنس بن شهاب : الخنس : ارتفاع أرنبة الأنف .
- رجل من خثعم : خثعم اسم قبيلة ، وهو في الأصل اسم بعير ، والخثعمة تلطخُ الجسد بالدم . ويقال : إنما سميت بذلك لأنهم نحروا بعيراً فتلطخوا بدمه وتحالفوا ، فسميت القبيلة به .
- دريد بن الصمة : يجوز أن يكون دريد تصغير تحقير «أَدْرَدَ» ، يقال : رجل أدرد وامرأة درداء ، وهو الذي كبر حتى سقطت أسنانه فصار يعض على دردره ، ومنه أبو الدرداء ، غير أن دريدًا تحقير أدرد على الترخيم .

ويقال : إن عجوزًا رأت فتى يقبل صبيًّا فشاقها ذلك ، فعمدت إلى حجر فهتمت به فاها وأرته ذلك تقربًا منه ، فقال لها : أعييتني بأشر فكيف بدردور؟ أي : رغبتُ عنك ولك أسنان فكيف وأنت بلا سن؟! والصمَّة : الشجاع .

- سويد المراثد الحارثي : سويد : تصغير تحقير لأسود . والمراثد : جمع مرثد ، من رثدتُ المتاع بعضه على بعض أي نضدته .
- رجل من بني نصر بن قُعين : قعين : تصغير تحقير لـ «أقعن» وهو قصر

فاحش في الأنف .

- أشجع السلمي : الأشجع : واحد الأشاجع ، وهو عصب ظاهر الكف ومفاصل الأصابع ، ورجل أشجع : طويل .
- الشمردل بن شريك : الشمردل : الطويل .
- أبو الحجناء : تأنيث الأحجن ، وهو الأعوج ، ومنه المحجن للعصا المعوجة الرأس .
- الغطمش الضبي : الغطمشة : أخذ الشيء قهرًا ، أو: الرجل الكليل البصر .
- فاطمة بنت الأحجم الخزاعية : الأحجم الشديد حمرة العينين مع سعتهما ، والأنثى حجماء . وهذا الشاعر هو أحجم بن دندنة الخزاعي زوج خالدة بنت هاشم بن عبدالمطلب ، وكان أحجم أحد سادات العرب . وخزاعة سميت بذلك لانخزاعهم عن الأزد إلى الحجاز أيام خرجوا من مأرب ، أي لانقطاعهم عنها ، يقال : انخزع الحبل أي انقطع .
- مهلهل : يقال إنه سمي بذلك لأنه أول من أرقَّ الشعر وهلهله . وأنكر قوم هذا فقالوا : كيف يكون هذا ومهلهل أحد شعراء العرب . وقال ابن الكلبي : إنما سمي مهلهلاً ببيت قاله :

لما توعر في الكراع هجينهم … هلهلتُ أثأر مالكاً أو صنبلا

الكراع : أنف الحرة ، وهلهلت : رجعت الصوت .

- حزاز بن عمرو أخو بني عبد مناة : حزاز : جمع حزازة ، وهي هبرية الرأس ، وهو ما ينتثر منه كالنخالة إذا سرحته[١] .

---

(١) أي القشرة .

- إياس بن الأرت: هو مصدر أَسَتُّه أَأُوسه أوسًا إذا أعطيته . والأَرَت: الذي في لسانه عجلة .
- ريطة بنت عاصم: الريطة: الملاءة .
- ابن حبناء التميمي: الحبن: ورم في أسفل السرة . وتميم بمعنى تام ، والتميم أيضًا جمع تميمة أي المودة .
- الفرزدق: قطع العجين غير مخبوزة ، أو الرغيف ، أو فُتات الخبز . جمع فرزدقة .
- بغثر: البغثر: الأحمق الضعيف .
- سالم بن وابصة: وبيص كل شيء بريقه .
- المعلوط بن بدل القريعي: المعلوط من علطت البعير إذا وسمته في عرض خده .
- حاتم بن عبدالله: الحاتم: الغراب .
- المقَنَّع الكندي: المقنع: الرجل اللابس سلاحه ، وكل مغط رأسه فهو مقنع .
- الصلتان العبدي: الصلتان: الماضي المنصلت في أمره وشأنه .
- جران العود: الجران: باطن عنق البعير والدابة . ويقال إن هذا الشاعر سمي بذلك لقوله:

خذ حذرًا يا جارتي فإنني رأيت جران العود قد كاد يصلح

- بعض القرشيين: قريش قبيلة ، وهو من تقرش القوم إذا تجمعوا ، ويقال: إن قريشًا دابة من دواب البحر ، ويقال أيضًا: تقرش الرجل إذا تنزه عن مدانس الأمور .
- أبو الربيس الثعلبي: هو تصغير تحقير للربس ، وهو الضرب باليدين ، وداهية ربساء أي شديدة .

- أبو الطمحان القيني: الطمحان: من طمح بأنفه وبصره إذا تكبر. والقين: الحداد، وهو أيضًا موضع القيد من البعير.
- أبو دهبل: دهبل اسم طائر.
- أبو القمقام الأسدي: القمقام: السيد، وهو في الأصل البحر، لأنه مجتمع الماء، وشبه الرجل به لاجتماع الأمور إليه.
- قعنب بن أم صاحب: القعنب: الشديد الصلب من كل شيء.
- سويد بن مشنوء: هو اسم مفعول من شنئته أشنؤه شنأً إذا أبغضتُه.
- أبو العتاهية: العتاهية: من التعتُّه، وهو التحسن والتزين.
- العرندس الكلابي: العرندس هو البعير الشديد.
- عبدالله الحوالي: الحوالي: الجيد الرأي، وهو «فعالي» من الحيلة. وبنو حوالة حي من العرب.
- النابغة الذبياني: ذبنتْ شفته بمعنى ذبلت من العطش، والذبيان: شَعْرُ عرف الدابة.
- حطائط بن يعفر: الحطائط هو الصغير المحطوط من كل شيء. وأما يعفر فمثل «يزيد» و«يشكر» و«تغلب»، يقال: عفرتُ الزرع إذا سقيته أول مرة، وعفرت النخل إذا فرغت من لقاحه، وعفرت الرجل في التراب أعفره.
- واقد بن الغطريف: الغطريف: السيد الكريم، يقال إنه في الأصل: البازي.
- بلال بن جرير: البلال: أحد أسماء الماء. والجرير: حبل الزمام.

مشاكلة الناس لزمانهم*

لليعقوبي

● كان أبو بكر بعد رسول الله ، ﷺ ، أزهد الناس وأشدَّهم تواضعًا وتقلّلاً في لباسه ، وكان يلبس وهو خليفة الشملة والعباءة . . وكان ذو الكلاع ملك حمير فيمن قدم على أبي بكر في عشيرته وقومه وعليه التاج ، وكان له عشرة آلاف عبد . . فلما رأى لباس أبي بكر قال: ما ينبغي لنا أن نفعل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله ، ﷺ . فنزع لباسه الأول ، وتشبه بأبي بكر . .

● وكان الأشعث بن قيس ملك كندة يلبس التاج ، ويُحيًّا بتحية الملوك ، فلما أسلم بعد ارتداده وزوَّجه أبو بكر أخته أم فروة بنت أبي قحافة ، تواضع بعد التكبر ، وتذلَّل بعد التجبر ، حتى كان يشدُّ عليه

(*) مشاكلة الناس لزمانهم / تأليف أحمد بن إسحاق اليعقوبي المؤرخ ، تحقيق وليم ملورد . ط ٢ ، بيروت: دار الكتاب الجديد ، ١٤٠٠هـ ، ٤١ ، ٦ ص .

والمؤلف مؤرخ جغرافي كثير الأسفار ، من أهل بغداد . كان جده من موالي المنصور العباسي . رحل إلى المغرب ، وأقام مدة في أرمينية ، ودخل الهند ، وزار الأقطار العربية ، وصنف كتبًا منها: «تاريخ اليعقوبي» ، انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العباسي . وكتاب «البلدان» ، و«أخبار الأمم السالفة» ، وهذا الكتاب ، الذي وصل فيه إلى الحديث عن المعتضد ولم يكمله! توفي بعد ٢٩٢هـ . انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٩٥ ، ط ٨ .

يقدم المؤلف في هذا الكتاب نماذج مختلفة من التقاليد التي سار عليها الناس . وكان الأصل فيها متابعة الخلفاء في سلوكهم أو بعض عاداتهم . من أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى المعتضد الخليفة العباسي .

شملة خَلَقة ، ثم يدهن البعير بيده تشبهًا بأبي بكر ، واطراحًا للأخلاق التي كان عليها في الجاهلية .

● وكـان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه شديدًا في ذات الله . وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن ، وكان يلبس غليظ الثياب ، ويركب الحمارة ببرذعة مُرَسَّنة بحبل ليف . وحضرتْهُ الوفاة ، فأتاه سعد بن أبي وقاص فقال له : أوصني يا أبا عبدالله ، فقال : نعم ، اذكر الله عند همك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكيت ، وعند يدك إذا قسمت . وجعل سلمان يبكي ، فقال له : يا أبا عبدالله ما يبكيك؟ قال : سمعتُ رسول الله ، ﷺ ، يقول : «**إن في الآخرة عَقَبةً لا يقطعها إلا المُخِفُّون**» وأرى هذه الأساود حولي .

فنظرنا فما رأينا في بيته إلا إداوة ، أو ركوة ، أو قِدْرًا ، أو مطهرة .

● وكان عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في السماحة والجود وصلة الأرحام ورفع القرابة واتخاذ المال على ما كان عليه ، فامتثل الناس فعله . فبنى عثمان داره بالمدينة وأنفق عليه مالاً جليلاً ، وشيَّدها بالحجارة ، وجعل على أبوابه مصاريع الساج ، واتخذ أموالاً بالمدينة وعيونًا وإبلاً .

وفي أيام عثمان اتخذ أصحاب رسول الله ، ﷺ ، الأموال وبنوا الدُّور .

فبنى الزبير بن العوام داره المشهورة بالبصرة ، وفيها الأسواق والتجارات .

وبنى طلحة بن عبيدالله دورًا وعقارات قُوِّمت بمائة ألف دينار .

وبنى عبدالرحمن بن عوف داره فوسَّعها ، وكان له ألف بعير وعشرة آلاف شاة ومائة فرس .

● وكـان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مشتغلاً أيامه كلها بالحـرب ، إلا أنه لم يلبس ثوبًا جديدًا ، ولم يتخذ ضيعة ، ولم يعقد على مال ، إلا ما كان له بينبع . . . مما يتصدق به . وحفظ الناس عنه الخطب ، فإنه خطب بأربعمائة خطبة حُفظت عنه .

● وبنى معـاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنـه ـ القصور وشيَّد الدُّور ، وعلَّى الستور ، واتخذ الحرس ، واتخذ الشرطة ، وأقام الحُجَّاب ، ولبس الخـز والوشي ، واتخذ الصوافي والضياع ، وعُمل له الطراز باليمن وبمصر والإسكندرية والرها ، فاتخذ أهله وولده وعماله ما اتخذ ، وفعلوا مثل ما فعل .

● وكان يزيد بن معاوية صاحب طرد وجوارح وكلاب ولهو ، فغلب ذلك على أصحابه . وفي عصره ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي .

● ثم كان عبدالملك بن مروان ، فكان صارمًا حازمًا بخيلاً ، يحب الشعـر والفخـر والتقـريظ والمدح ، وكان في عصره فحول الشعراء جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، وكثر الشعر في أيام عبدالملك ، وامتدحت الشعـراءُ الأمـراءَ والأشراف وطلبت الثـواب . وكان له إقدام على الدماء ومعاجلة ، فكان عماله على مثل مذهبه: الحجاج بالعراق ، والمهلَّب بخراسان .

● وكـان سليمان بن عبـدالملك صاحب طعـام وأكل كثير يتجاوز المقـدار ، ولبـاس الثياب الـرقاق وثياب الوشي جبابًا وأردية وسراويلات وعمائم وقلانس ، فكان لا يدخل أحد من أهل بيته عليه إلا في الوشي ، وكذلك عماله وأصحابه وخدمه ومن في داره .

● ثم كان عمر بن عبدالعزيز ، فولي بتواضع ونسك وتزهد ودين وتقـرب لأهـل الفضـل . فعزل عمال الوليد ، واستعمل أصلح من قدر عليه . فكـان عماله يذهبون مذهبه . وارتفع عن الناس ما كانوا فيه من الجور والظلم ، وترك لعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على المنابر ، وجعل مكانه : **﴿ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**[١] . فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية .

● وكـان مروان بن محمـد بن مروان بن الحكم[٢] كل أيامـه في حروب ، إلا أنه أول خليفة أظهر العصبية وأوقعها في الناس . وهو أول من أطـال الـرسـائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده .

● وكـان أبـو جعفـر المنصـور أول هاشمي أوقـع الفرقة بين ولد العباس بن عبدالمطلب وأبي طالب بن عبدالمطلب ، حتى قيل : عباسي وطالبي .

وكان أول خليفة ترجم الكتب القديمة العجمية ونقلها إلى اللسان العربى ، وفي أيامه تُرجم كتاب كليلة ودمنة ، وترجم كتاب السند هند ، وترجمت كتب ارسطاطاليس . . وسائر الكتب العجمية في النجوم والحساب والطب والفلسفة وغير ذلك ، ونظر فيها الناس . . وفي أيامه أيضًا وضع محمد بن إسحاق كتب المغازي ، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة .

وكان أول خليفة بنى مدينة فنزلها ، وهى مدينة بغداد .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

(٢) هو القائم بحق الله ، ويعرف بالجعدي وبالحمار ، وهو آخر ملوك بني أمية في الشام ، ت ١٣٢هـ .

وكـان أول خليفـة استعمل مواليه وغلمانهم وقدَّمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من ولده بعده .

● وكان المهدي سمحًا سخيًّا كريمًا جوادًا بالأموال ، وكان الناس في عصره على مثل مذهبه . واتسع الناس في أيامه في معايشهم .

وكان إذا ركب حملت معه الأموال ، فلا يسأله أحد إلا أعطاه بيده ، فتشبه الناس به .

وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد .

وبنى المسجد الحرام على ما هو عليه إلى هذه الغاية ، وبنى مسجد رسول الله ، ﷺ ، وكانت الزلازل هدمته .

● ثم كان موسى بن المهـدي[١] فكـان جبارًا ، وكان أول خليفة مشت الرجال بين يديه بالسيوف المسللة والعمد والقسي الموترة ، فتشبه عماله به وذهبوا مذهبه .

● ثم كان هارون الرشيد ، فكان متابعًا للحج والغزو وبناء المصانع والثغور في طريق مكة والمدينة ، وبمكة والمدينة ومنى وعرفات . وبنى ثمانية ثغور ، وبنى دورًا للمرابطين . . فتشبه أهله وعماله وأصحابه وكتَّابه به ، فلم يبق أحد إلا بنى بمكة دارًا وبالمدينة دارًا . . وكان أكثرهم لذلك فعلاً وأحسنهم أثـرًا زوجتـه أم جعفـر بنت جعفـر بن المنصـور ، ثم الـبرامكة وزراؤه ، وغيرهم من مواليه وقوَّاده وكتَّابه .

---

(١) هو موسى (الهادي) ابن محمد (المهدي) ابن أبي جعفر المنصور . ت ١٧٠هـ . وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر .

وكانت زوجته تريد أن تتقدم عليه في كل شيء ، من جد وهزل . . فمن الجد الآثار الجميلة التي ليس في الإسلام مثلها ، فإنها حفرت عين المشاش ، وساقتها اثني عشر ميلاً إلى مكة ، وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة دينار . ثم اتخذت المصانع والسقايات والمتوضئات حول المسجد الحرام ، وبنت دور السبيل ومصانع بمنى ، وفي عرفات سقايات . وحفرت آبارًا في منى على طريق مكة ، ووقفت على ذلك ضياعًا غلَّتها ثلاثون ألف دينار في السنة . وبنت في الثغور دور السبيل ، وعملت البيمارستانات ، وحبست ضياعًا على الثغور وعلى الفقراء والمساكين .

وأما ما يتلينَّ به الملوك وينعمون به فهي أول من عمل في الإسلام الآلة من الذهب والفضة المكلَّلة بالجوهر ، واتخذت رفيع الوشي . . .

وكان الرشيد أول خليفة كتب في صدور الكتب: «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ، ﷺ» ، فامتثلت الخلفاء ذلك بعده .

وهو أول خليفة كتب على الأعلام السواد بالبياض: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله .

● وغلب على المعتصم ـ وهو محمد بن هارون الرشيد ـ الفروسية والتشبه بالعجم ، فلبس الثياب الضيقة الأكمام ، فضيَّق الناس أكمام ثيابهم!

وكان أول خليفة ركب السروج المكشوفة واتخذ الآلات العجمية ، فتشبه الناس به .

● وأطلق المتوكل ـ ابن المعتصم ـ من كان في المحابس ممن حُبس بسبب عدم القول بخلق القرآن . ونهى عن الجدل . وأمر كل من أطلقه من المحدِّثين أن يتحدَّثوا . فترك الناس تلك المقالة ، وأنكرها من كان يقول

بها ، وارتفع الجدل والمناظرة .

وكـانت أيامه حسنة ناضرة كثيرة الخير ، على أنه أول خليفة أظهر العبث وأطلق في مجلسه الهزل والمضاحك . . ذاعت في الناس واستعملوها وجروا فيها .

الملاحـــن*

لابن دريد

ليس المقصود بـ «الملاحن» هنا ما تلحن فيه العامة فتشوّه اللغة وتميل عن الفصحى . . بل المقصود بها هو الفطنة ، وصرف الكلام بمعناه إلى تعريض وفحوى . . ومنه قوله ، ﷺ : «**ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض**» . رواه الستة . أي أفصح وأبين كلامًا وأقدر على الحجة .

وهذا الكتاب الغريب الذي سأشير إلى بعض ما فيه ، يدلك على معاني كلمات هي بخلاف ما يفهم من ظاهرها . . حتى تخشى أن تسيء الظن بالمؤلف وتقول إنه يعلّم بعض من تسوِّل له نفسه اللعب بالكلام مما نحن في غنى عنه . . لكنه يلخص لك الهدف من وراء ذلك ويؤوله بغاية نبيلة ، وهي الدفاع عن المظلومين الذين يُكْرهون على الحلف ، فيعلمهم

(*) الملاحن/ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، صححه وعلق عليه وذيّله بذيل إبراهيم اطفيش الجزائري . بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، ١١٨ ص .
والمؤلف (٢٢٣ ـ ٣٢١هـ) كما في الأعلام للزركلي ط ٢ : من أزد عمان من قحطان . . من أئمة اللغة والأدب . كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء . وهو صاحب «المقصورة الدريدية» . ولد في البصرة ، وانتقل إلى عُمان فأقام اثني عشر عامًا ، وعاد إلى البصرة . ثم رحل إلى نواحي فارس ، فقلده «آل ميكال» ديوان فارس ، ومدحهم بقصيدته «المقصورة» ثم رجع إلى بغداد ، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارًا ، فأقام إلى أن توفي . ومن كتبه: «الاشتقاق» في الأنساب ، و«المقصور والممدود» ، و«شرحه» و«الجمهرة» في اللغة ، ثلاثة مجلدات ، أضاف إليها المستشرق كرنكو مجلدًا رابعًا للفهارس ، و«ذخائر الحكمة» ، رسالة و«المجتبى» و«صفة السرج واللجام» و«الملاحن» و«السحاب والغيث» و«تقويم اللسان» و«أدب الكاتب» و«الأمالي» و«الوشاح» و«زوار العرب» و«اللغات» .

المؤلف التعـريض في الكلام ، وهو التورية والكناية ، أي ما يراد به غير مقتضى الظاهر من الكلام ، فيقول:

«هذا كتاب ألّفناه ليفزع إليه المُجْبَر المضطهد[١] على اليمين ، المُكْرَه عليها ، فيعارض بما رسمناه ، ويضمر خلاف ما يظهر ، ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من حيف الغاشم . . » .

ومن أمثلة ما أورده الكاتب من «الملاحن» :

تقول: والله ما سألت فلانًا حاجة قط .

والحاجة ضرب من الشجر له شوك ، والجمع حاج .

وتقول: والله ما رأيت فلانًا قط ولا كلمته .

فمعنى ما رأيته أي ما ضربت رئته ، ومعنى كلمته جرحته .

وتقول: والله ما أخذت من فلان خفًّا ولا نعلاً .

فالخف من أخفاف الإبل ، والنعل القطعة الغليظة من الأرض .

وتقول: والله ما أملك كلبًا ولا فهدًا ولا أعرف لهما موضعًا .

فالكلب: المسمار في قائم السيف ، والفهد: مسمار في واسط الرحل .

وتقول: والله ما كسرت لفلان سنًّا ولا ضرسًا .

فالسن قطعـة من العشب تتفرق في الأرض ، والضرس قطعة من المطر تقع متفرقة في الأرض . والسن عند بعض العرب الثور الوحشي .

وتقول: والله ما نصح فلان فلانًا ولا يحسن أن ينصح .

فالنصح الخياطة ، والمنصحة الإبرة ، والنصاح الخيط الذي يخاط به .

---

(١) أي المقهور .

وتقول: والله ما أعرف لفلان ليلاً ولا نهارًا .

فالليل ولد الكروان ، والنهار ولد الحبارى .

وتقول: والله ما أخذت من فلان دجاجة ولا فروجًا .

فالدجاجة الكبة من الغَزْل ، والفرُّوج الدُّراعة[1] .

وتقول: والله ما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا .

فالبقرة العيال الكثير . تقول: جاء فلان يسوق بقرة أي عيالاً كثيرًا .

والثور: القطعة العظيمة من الأقط .

وتقول: والله ما كنت قائدًا قط ولا أصلح لذلك .

فالقائد الجدول يسقي الأرض بطوارها[2] .

وتقول: والله ما وطئت لفلان أرضًا ولا دخلتها .

فالأرض باطن حافر الفرس .

وتقول: والله ما رأيت فلانًا راكعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا .

فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه . قال الشاعر:

وأفلت حاجبٌ فوق العوالي ... على شقّاء تركع في الظّراب

والساجد المدمن النظر في الأرض . قال الشاعر (كثيّر):

أغرّك منّا أنّ ذُلَّكِ عندنا ... وإسجاد عينيك القتولين رابح

وقال آخر:

تظل ساجدة والعين خاشعةٌ ... كأنها راعفٌ أو مقتفٍ أثرا

والمصلي الذي يجيء بعد السابق من الخيل . قال الشاعر: (النابغة الذبياني):

---

(١) قميص المرأة ، أو ثوب من صوف ، وقيل: القباء .

(٢) حدودها .

فآب مصـــليـــهـم بعـــين جليـــة وغـــودر بالجـــولان حزم ونـائـل

وتقول: والله ما خربت لفلان قرية ولا أتلفت له تمرة .

فالقرية قرية النمل ، والتمرة طرف السوط من القد .

وتقول: والله ما قتلت ولا جرحت ولا طعنت .

فالقتـل المـزج . والجـر: الكسب قال تعالى: ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾(١) ، والطعن: من قولهم ما طعنت في عرضه .

وتقول: والله ما كشفت لها قناعًا ولا عرفت لها وجهًا .

فالقناع: الطبق ، والوجه: القصد .

وتقول: والله مالي فَرْش ولا أملكه .

فالفرش الصغار من الإبل . وفي التنزيل: ﴿ومن الأنعام حمولة وفَرْشًا﴾(٢) .

وتقول: والله مالي جمل ولا ملكته .

فالجمل: سمكة من سمك البحر .

وتقول: والله ما كلمت سهلاً ولا سهيلاً .

فالسهل: ضد الحزن ، وسهيل: نجم معروف .

وتقول: والله ما رأيت في البلد عربًا ولا عجمًا .

فالعرب: مصدر عربت المعدة عربًا إذا فسدت ، والعجم: من كل شيء نواه وحَبُّه .

وتقول: والله ما رأيت فلانًا قط متعففًا ولا متجملاً .

فالمتعفف: الـــذي يشرب العُفـافـة وهي باقي اللبن في الضرع ، والمتجمل: الذي يأكل الجميل وهو الشحم المذاب .

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢ .

وتقول: والله ما أكلت ثومة ولا مضغتها .

فالثومة: قبيعة السيف .

وتقول: والله ما أخفيت هذا الأمر .

أي لم ألق عليه الخفاء ، والخفاء كساء يطرح على السقاء حتى يروب .

وتقول: والله ما تقدمت فلانًا قط .

أي لم أضرب مقاديمه .

وتقول: والله ما شتمت فلانًا ولا شتمني .

أي لم أقل له إنك شتيم الوجه . والشتيم: القبيح .

وتقول: والله ما أفرحني ولا سرَّني .

أفرحني: أثقلني [بالدَّين] ، وسرَّني أصاب سرَّتي .

وتقول: والله ما أشهدت فلانًا قط ولا أشهدني .

أي ما صادفت عنده شهدًا ، ولا أشهدني أي ولا صادف عندي شهدًا .

من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة*

لابن حيَّوَيْه

● أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ

كانت له زوجة تسمى أمَّ بكر.

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تدعو على من يزعم أن أبا بكر قال هذه الأبيات. قالت: والله ما قال أبو بكر بيت شعر في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية، ولكن أبا بكر تزوَّج امرأة يقال لها «أم بكر»، فطلَّقها، فتزوجها ابن عمها هذا الشاعر الذي قال هذه الأبيات:

وماذا بالقليب قليبِ بدرٍ — من الشيزى تزيَّن بالسنام
وماذا بالقليب قليبِ بدرٍ — من الفتيان والشَّرب الكرام

(*) من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة/ لابن حَيَّوَيْه، تحقيق محمد حسن آل ياسين. ط ٢. دمشق: دار البصائر، ١٤٠٣هـ، ٣٢ ص. (النوادر، ٥).

والمؤلف هو أبو الحسن محمد بن عبدالله بن زكريا بن حَيَّوَيْه النيسابوري، ثم المصري، القاضي. أصله من نيسابور، ومولده ومنشؤه بمصر. قال عنه ابن ماكولا: كان ثقة نبيلاً. ت ٣٦٦هـ.

يقول في مقدمته: «هذا كتاب ذكرنا فيه جماعةَ رجالٍ من أصحاب رسول الله، ﷺ، وافقت كناهم كُنى أزواجهم، فمن أزواجهم مَن لها صحبة لرسول الله، ﷺ، ومنهن من لا صحبة لها، ومنهن من كانت مقيمة في عقد نكاح زوجها، ومنهن من طلقها زوجها، وخلف غيره عليها، ومنهن المذكورة بروايتها لحديثها، ومنهن من جاء ذكرها في رواية غيرها. وما وصفناه من حالهن فهو موجود فيما ذكرناه من حديثهن».

تحيَّا بالسلامة أم بكرٍ   وهل لي بعد قومي من سلام؟!

ثم استدل المؤلف بهذا وبرواية أخرى أن أم بكر كانت زوجة أبي بكر في الجاهلية لا في الإسلام .

● أبو الدحداح الأنصاري .

وزوجته أم الدحداح ، ـ رضي الله عنهما ـ .

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾**[١] قال أبو الدحداح: يا رسول الله ، وإن الله يريد منا القرض؟ قال: **نعم يا أبا الدحداح** . قال: أرني يدك . قال: فناوله ، قال: **فإني أقرضت ربي حائطًا لي فيه ستمائة نخلة!**

ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، فناداها: يا أم الدحداح ، قالت: لبيك . قال: اخرجي ، قد أقرضتُ ربي حائطًا فيه ستمائة نخلة[٢] .

● أبو ذر الغفاري ، جندب بن جنادة .

وزوجته أم ذر ـ رضي الله عنهما ـ .

عن أم ذر أنها قالت: لمَّا حضرت أبا ذر الوفاة قالت: بكيتُ ، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: ومالي لا أبكي وأنت تموت بفلاةٍ من الأرض ولا يَدانِ لي بتغسيلك ، وليس معنا ثوب يسعك كفنًا ، لي ولا لك . قال: لا تبكي وأبشري فإني سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول: «**لا يموت بين امرأين**

---

(١) سورة البقرة ، الآية: ٢٤٥ .

(٢) أخرج ابن منده الحديث من طريق عبدالله بن الحارث ، عن ابن مسعود ، بنص مُقارب للأصل . وأخرجه أحمد والبغوي والحاكم من طريق آخر وبنص آخر .

مسلمين ولدانِ أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبدًا» ، وقد مات لنا ثلاثة من الولد . وإني سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول لنفرٍ أنا فيهم : «ليموتن رجل منكم بفلاةٍ من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين» ، وليس من أولئك النفر إلا وقد مات في قرية وجماعة ، وإني أنا الذي أموت بالفلاة ، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ ، فأبصري الطريق ، قالت : فقلتُ : أنّى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق ، فقال : انظري ، قالت : فكنت أشتد إلى الكثيب فأقوم عليه ، ثم أرجع إليه فأمرّضه .

قالت : فبينما أنا كذلك إذا أنا برجالٍ على رواحلهم ، كأنهم الرخم ، فألحتُ بثوبي ، فأسرعوا إليّ ، فقالوا : ما لك يا أمة الله؟ فقلتُ : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه ، قالوا : ومَنْ هو؟ قلتُ : أبو ذر ، قالوا : صاحب رسول الله ، ﷺ؟ قلتُ : نعم ، قالت : ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلّموا عليه ، فرحب بهم وقال : أبشروا فإني سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : «لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبدًا» ، وسمعته ، ﷺ ، يقول لنفر أنا فيهم : «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين» ، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد هلك في قرية وجماعة ، وإني أنا الذي أموت بفلاة ، والله ما كذَبْتُ ولا كُذِّبتُ ، وإنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنًا أو لامرأتي ثوب يسعني كفنًا لم أكفّن إلا في ثوب هو لي أو لها ، وإني أنشدكم بالله أن لا يكفنني منكم رجل كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا أو نقيبًا ، قال : فليس من القوم أحد إلا وقد أصاب من ذلك شيئًا ، إلا فتى من الأنصار قال : أنا أكفنك ، لم أُصب من ذلك شيئًا ، أكفنك في ردائي

(١) يراجع في هذا أيضًا طبقات ابن سعد ٤/١/١٧٢ - ١٧٣ ، الاستيعاب ٤/٦٥ ، أسد الغابة ١/٣٠٢ ، الإصابة ٤/٦٥ .

هذا وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي ، قال: أنتَ فكفّنّي .

فكفنه الأنصاري ودفنه ، في النفر الذين هم معه ، منهم حجر بن الأدبر ، ومالك الأشتر ، في نفرٍ كلهم يمان(١) .

● أبو رافع ، مولى رسول الله ، ﷺ .

وزوجته أم رافع (سلمى) - رضي الله عنهما - . وكانت حاضنة لفاطمة - رضي الله عنها - .

قالت أم رافع: اشتكتْ فاطمة بنت رسول الله ، ﷺ ، فمرّضتها ، فأصبحت يومًا كأمثل ما رأيتها في شكوتها - وكان علي بن أبي طالب خرج لبعض حاجته - فقالت فاطمة: يا أمي سلمى اسكبي لي ماء ، أو قالت: اسكبي لي غسلاً ، قالت: فسكبتُ لها غسلاً ، فقامت فاغتسلت كأحسن ما كنتُ أراها تغتسل ، ثم قال: يا أمه ناوليني ثيابي الجدد ، قالت: فناولتُها فلبستْها ، ثم جاءت إلى البيت الذي كانت فيه فقالت لي: قدمي لي فراشي وسط البيت ، قالت: فقدمتُه ، فاضطجعتْ ووضعتْ يدها اليمنى تحت خدها ، ثم استقبلت القبلة فقالت: يا أمّه إني قد اغتسلت وإني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ، قالت: فقبضت مكانها . قالت: فدخل علي بن أبي طالب فأخبرته فقال: والله لا يكشفها أحد . فاحتملها ودفنها بغسلها ذلك(١) .

---

(١) ورد الخبر بنص مقارب للأصل في طبقات ابن سعد ٨/١٧ - ١٨ ، وأسد الغابة ٥/ ٥٩٠ ، والإصابة ٤/ ٣٦٧ . وذكر في الاستيعاب ٤/ ٣٢٢ أن أم رافع هي التي غسلت فاطمة مع علي رضي الله عنه وأسماء بنت عميس .

نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر*

للسيوطي

ذكر ما قيل في البيض

قال البهاء زهير:

يا مغــرمًــا بالــسُّمــر ما ... أنــا فيــهــمُ لك متَّبــع
لكــن على حبِّ الحِــســا ... ن الــبيض قلبي قد طُبــع

(*) نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر/ تأليف جلال الدين أبي الفضل عبدالرحمن السيوطي . دمشق : المكتبة العربية ، ١٣٤٩هـ ، ١٦ ص .

قال المؤلف في مقدمته : (ألف جماعة من الأدباء في التفضيل بين البيض والسمر ، وقد خالف ابن المرزبان ، فألف كتاب «السودان» وفضلهم على البيضان . ولا أستكثر هذا عليه ، فإنه ألف كتاب «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» . فإذا فضل الكلاب على بني آدم لم يكثر عليه أن يفضل السودان على البيضان!

وقال الحافظ المنذري في تاريخه : «تنازع رجلان في فضائل البيض والسود ، فألف أبو العباس الناشىء رسالة في تفضيل السود على البيض» . وهذا عندي أيضًا يشابه الذي عمل مفاخرة بين الذهب والزجاج . وهذا كتاب لطيف جامع لما ذُكر في تفضيل البيض والسود والسمر يسمى : نزهة العمر) .

قلت : المقصود هنا الناحية الجمالية ، وهي شيء نسبي ، تختلف بطبائع البشر وألوان بَشَرتهم . . وما عدا ذلك فقد حسمه الإسلام بقوله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

أما ما ذكره عن ابن المرزبان وكتابه «تفضيل الكلاب» ، فإنما يعني مؤلفه هؤلاء الذين انحطوا في درك البهيمية بسوء خلقهم وفعالهم . . وقد عرضته في كتابي السابق «جولة بين كتب غريبة» . والله أعلم .

والحــقّ أبــيض أبــلج والحــقّ أولى ما اتُّــبــع

وقال أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قادوس يذم السواد:

أَهْــونْ بلــون الـــسـواد لونًــا ما فيــه من حجــة تُنــاســبْ
لســتَ تــرى حمــرة لخدٍّ فيــه ولا خضــرةً لشـارب!

ذكر ما قيل في السمر

قال البهاء زهير:

لا تَلْحَ في الـسُّـمـر المِـلا ح فهـم من الـدنيـا نصيبي
والـبـيض أنـفـرُ عنهـمُ لا أشـتـهي لون المشـيـب

وقال آخر:

سمـراء كالغصن الرطيب قوامُها تَسْبي الأنـام بفـاتـر الأحـداق
ترمي بقـوس حواجب من لحظها نَبْـلا يُصيب مقـاتـل العشـاق

ذكر ما قيل في السود

قال أبو الفتوح بن قلاقس:

ربَّ سوداء وهـي بيـضــاءُ معنىً فهي مســكٌ إن شئتَ أو كافـورُ
مثــل حبِّ العيــون تحسبه النـا سُ سوادًا وإنــما هو نور

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي:

زعـمــوا أنـي بجـهـل تعـشَّـقْـ ـتُ سوداءَ دون بيضِ الـغـواني
ليس معنى الجهال فيـكِ بخـافٍ إنــما أنــتِ خالُ خَدِّ الـزمــان

وقال إبراهيم بن سيَّابة وقد عشق سوداء فلامه أهله عليها:

يكــون الخــالُ في وجــهٍ قبيحٍ فيـكـســوه المـلاحـةَ والجـمالا
فكــيـف يُلام في عشـق على مَنْ يراهــا كلهـا في العـين خالا؟!

وقال آخر:

وإن سوادَ العـين في العين نورُها ... ومـا لبيـاض العـين نورٌ فيُعْلَما

وقال وجيه الدين عبدالكريم المناوي في سوداء:

يا رُبَّ سوداء تُجلى ... بحسنها الظلمات
ماذا يعيبون فيها ... وكلُّها حسناتُ!

وقال البدر بن الصاحب:

علقتُ سوداءَ كعين المها ... أو كالظِّبا فالعيش فيها يطيب
لا تعجبوا من فرط أُنسي بها ... فإنها الليل نهارُ الأديب!

ذكر من أنصف

قال البهاء زهير:

اسمع مقالةَ حقٍّ ... وكن بحقك عوني
إن المليح مليحٌ ... يُحَبُّ في كلِّ لون

وقال الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح:

أعشقُ البيض ولكن ... خاطري بالسمر أعلق
إن في البيض لمعنًى ... غير أن السمر أرشق
وظلالُ الأيك عندي ... من هجير الشمس أوفق
وشذا العنبر والمسـ ... ـكِ من الكافور أعبق
وإذا أنصفت والإنـ ... ـصاف بالعاقل أليق
فبديع الحُسن يُهوى ... كيفما كان ويُعشق

وقال الشهاب بن الشاب التائب:

يُحقِّقُ حسن السُّمر بعد تأملٍ ... ويدرك حسن البيض من لمحة البصر
وذاك لأن العين في الشمس ينجلي ... لناظرها ما ليس يظهر في القمر!

نقد الطالب لزغل المناصب*

لابن طولون الصالحي

منصب البَشْمَقْدارية[١]: البشمقدار من أقبح البدع ، لأنه موضوع لحمل نعل الأمير ، وذلك من الرعونة والحمق .

(*) نقد الطالب لزغل المناصب / شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، حققه محمد أحمد دهمان ، خالد محمد دهمان ، راجعه نزار أباظة . . دبي : مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١٢هـ ، ٢١١ ص .

مؤلف الكتاب مؤرخ ، عالم بالتراجم والفقه ، من أهل الصالحية بدمشق . . كانت أوقاته معمورة كلها بالعلم والعبادة ، وله مشاركة في سائرالعلوم حتى في التعبير والطب ، ت ٩٥٣هـ ، الأعلام ٦/ ٢٩١ ط ٨ .

وكتابه هذا سجلٌ للمهن والأعمال في زمنه ، يذكرها بالتفصيل ـ كما يقول المحقق ـ وقد انقرض كثير منها اليوم ، فاختفى أو حلَّ محله مهن أخرى مشابهة ، أو تغيرت أسماؤها ، كمهنة المشاعلية ، والبابا ، والجمدار ، والأستادار ، والجوكندار ، والطشتدار . . وهو كذلك يبرز الناحية الاجتماعية لعصره . . فيتحدث عن الطريقة التي يتصرف بها أهل كل طبقة من طبقات المجتمع ، والعادات التي يعتادونها (في عصر المماليك) . كما تبرز للكتاب ـ مع التأمل ـ غاية سامية ، فهو دعوة صادقة للتمسك بالفضائل والأخلاق ، وأخذ النفس بالورع والتقوى .

وقد اخترت من الكتاب بعض النوادر كما ذكرها المؤلف ، ومقتطفات من الطويلة منها . . حيث إن ما أورده منها ليس كل ما قاله فيه المؤلف ، إنما هو على سبيل اختيار جزء نادر لندرتها أو نفاستها . . أو للإعلام بما كان وما فيه فائدة للتذكير . . والهوامش المذكورة في أسفل المادة إنما هي مأخوذة من الكتاب المحقق .

والزغل: الغش والفساد ، وهو مجمل ما يدور موضوع الكتاب حوله ، إذ يشير إلى ما يدخل على كل منصب من انحرافات ، وما يطلب من العاملين فيه من سلوكيات .

(١) كلمة بشمق تعني بالتركية النعل ، ودار: ممسك .

ومن ادابه ألا يضع النعل على البساط وغيره مما يطؤه الناس بأرجلهم حفاة ، وربما لاقاه وجه مصلٍّ ، وربما كانت نجاسة في النعل . وبتقدير ألا يكون شيء من ذلك ، فلا يخفى ما في وضعه على هذا الوجه من الكبر والخيلاء . فإذا كان لابد من بشمقدار فلا أقل من أن يضع نعل الأمير موضع نعال الخلق .

منصب الطبردارية(١) : الطبردار هو الذي يحمل الطبر بين يدي الملك لأجل حفظ نفسه . ومن حقه الاحتفاظ عليه وعلى الملك .

منصب أميرشِكَار(٢) : وإليه أمر الطيور والكلام المعدة للصيد ، ومن حقه ألا يغفل عنها في مأكلها ومشربها .

منصب أمراء الدولة : عليهم تفقُّد حال الأجناد ، وتعليمهم رمي النشاب ، والمسابقة على الخيل ، بحيث يعرفون الطعان والضرب والحرب .

ومن قبائحهم ما يذهِّبونه في الأطرزة العريضة والمناطق (الأحزمة) وغيرها من أنواع الزراكش التي حرَّمها الله ، وزخرفة البيوت : سقوفها وحيطانها بالذهب . . وقد طلب الملك المظفر سيف الدين قطز شيخَ الإسلام وسلطان العلماء العز بن عبدالسلام بحضرة الملك الظاهر بيبرس ، والملك المنصور قلاوون ، وغيرهما من الأمراء ، وحادَثَه في الخروج إلى لقاء العدو من التتار لما داهموا البلاد ووصلوا إلى عين جالوت ، فقال له : اخرج وسيكون النصر بإذن الله . فقال : إن المال في خزائني قليل ، وأريد

---

(١) الطبر: الفأس بالفارسية ، والطبردارية يحملون الفؤوس حول السلطان في الموكب .

(٢) شِكَار: كلمة فارسية تعني الصيد .

الاقتراض من التجّار . فقال: إذا أحضرت أنت وجميع العسكر كل ما في بيوتكم وعلى نسائكم من الحلي الحرام ، وضربته على السكة ، وأنفقته في الجيش ، وقَصَّر عن القيام بكلفتهم ، أنا أسأل الله لكم في إظهار كنز من كنوز الأرض يكفيكم ويفضُل عنكم . وأما أنكم تأخذون أموال المسلمين ، وتخرجون إلى لقاء العدو ، وعليكم المحرمات من الأطرزة المزركشة ، والمناطق المحرمة ، وتطلبون من الله النصر ، فهذا لا سبيل إليه .

فوافقوه ، وأخرجوا ما عندهم ، ففرَّقه ، وكفى . وأخرجوا ، وانتصروا !

منصب المؤرخين: قال العراقي في الجرح والتعديل: وليحذر المتصدي من العرض في جانبي التوثيق والتجريح ، فالمقام خطر . ولقد أحسن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد حيث يقول: أعراض المسلمين حفرة من حفر النار ، وقف على شفيرها طائفتان من الناس: المؤرخون والحكام . ومع كون الجرح خطرًا فلابد منه للنصيحة في الدين .

وقال التاج السبكي . . فلابد أن يكون المؤرخ عالمًا عدلاً عارفًا بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغضِّ منه ، فربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال ، فيقع فيهم أو يقصِّر في الثناء عليهم لذلك .

منصب الفقهاء: يقول الشيخ الجليل فتح بن محمد بن علي الدمياطي (ت ٦٠٦هـ):

أيها العالم إياك الزَّلَلْ واحذر الهفوة والخطبُ جَلَلْ

هفـوة الـعـالم مسـتـعـظمـة ... إذْ بها أصبـح في الخلق مَثَـلْ
وعـلى زلَّـتـه عُـمـدتهـم ... فبـهـا يحتـجُّ من أخـطا وزَلْ
لا تقـل يَسْـتُر علمـي زلَّـتي ... بل بها يحصـل في الـعلم خَلَل
إن تكـن عنـدك مسـتحـقـرةً ... فهي عنـد الله والنـاس جَبَـل
ليس منْ يتـبـعـه الـعـالَمُ في ... كلِّ ما دقَّ من الأمـر وجَـلْ
مثـلُ من يدفـع عنـه جهـلُه ... إن أتـى فاحـشـةً قيـل جَهـل
انـظر الأنـجـمَ مهـما سقـطت ... مَنْ رآهـا وهـي تهوي لم يُبَـلْ
فإذا الَـشـمس بدتْ كاسـفـةً ... وجِـلَ الخلق لها كلَّ الـوَجَـلْ
وتـراءت نحـوهـا أبـصـارهم ... في انـزعـاج واضـطراب ووَجـل
وسرى الـنقصُ لهم مِنْ نقصهـا ... فغـدت مظلمـة منهـا السُّبُـل
وكـذا الـعـالم في زلَّـتـه ... يَفْـتِـنُ الـعـالَمَ طرًّا ويُضِـل

منصب اللغويين: فمنهم طائفة استغرق حبُّ اللغة قلبها، وملأ فكرها، فأداها إلى التقعُّر في الألفاظ وملازمة حوشي اللغة، بحيث خاطبت من لا يفهم. ونحن لا ننكر أن الفصاحة فن مطلوب، واستعمال غريب اللغة عزيز حسن، ولكن مع أهله ومن يفهمه.

حُكي أن علي بن الهيثم[١] كان لمّا غلب عليه من ذلك، تأتيه العامة أفواجًا لسماع كلامه، وأنه مرَّ به مرة فارسي قد ركب حمارًا خلفه جحش وبيده عِذْقٌ قد ذهب بَسْره[٢] إلا قليلاً، يقود به بقرة يتبعها عجل لها، فناداه علي بن الهيثم: يا صاحب البيدانة القمراء، يتلوها تولب، بيده

(١) ويعرف بجونقا.. تولى الكتابة في ديوان المأمون وغيره.
(٢) العذق: قنو النخلة، والبَسْر: التمر قبل إرطابه.

شملول يطبِّي به خَزُومة ، يَقفوها عِجَّوْل ، أتقايض بعجولك جُحْجُحًا زَهِمًا؟

قال : فالتفت إليه الفارسي وقال : «يا بابا فارسي هَمْ نَدانَم»(١) .

«البيدانة : الأتان . القمراء : البيضاء الوجه . التولب : ولد الحمار . الشملول : العذق . يطبي : يدعو . الخزومة : البقرة الوحشية . الجحجح : الكبش . الزهم : السمين» .

كما يحكى أن أبا علقمة الواسطي عرض له مرض شديد ، فأتاه «أعين بن أعين» الطبيب ، فسأله عن سبب علته فقال : أكلت من لحوم هذه الجوازل ، فطسئتُ طسأة ، فأصابني وجع بين الوابلة إلى داية العنق ، فما زال يتمأى وينتمي حتى خالط الخِلْب وتألمتْ له الشراسيف .

فقال له أعين الطبيب : خذ شرفقًا وشبرقًا ، فزهزقه ودقدقه .

فقال أبو علقمة : أعدْ عليَّ فإني ما فهمت .

قال الطبيب : قَبَّح الله أقلنا إفهامًا لصاحبه .

«الجوازل : فراخ الحمام ، الواحد جوزل . الطسأة : الهيضة . الوابلة : طرف الكتف ، وهو رأس العضد . داية العنق : فقارها . يتمأى : يتمدد . ينمي : يتزايد . الخِلْب : حجاب القلب ، ويقال : مضغة فوق الكبد . الشراسيف : غضاريف متصلة بالأضلاع» .

وحكى ابن دريد (ت ٣٢١هـ) أن الأصمعي ذكر أن رجلًا مشجوجًا جاء إلى صاحب الشرطة ، فشكى أن امرأً شجَّه . فأمر بإحضاره ، فلما

---

(١) معناها بالفارسية : وحتى الفارسية فإنني لا أعرفها ، أي : فكيف تكلمني بالوعر من العربية ، وأنا لا أكاد أعرف الفارسية؟

حضر سُئل ، فأنكر ، فقال المشجوج : لي أعرابي بالسوق يشهد لي . فلما حضر الأعـرابي سئـل ، فقـال : بينا أنا على كودن يضهززني ، إذ مررتُ بوصيد دار ، فإذا أنـا بهذا الأُخَيْشب يدعُّ هذا دعًّـا متراسفًـا ، فعـلاه بمنسأته ، فقهقر ، ثم بدره بمثلها فقطر ، ثم أدبر وبرأسه جديع يثجُّ نجيعًا على كَتَده . فقال صاحب الشرطة : شجني وأعفني من سماع شهادة هذا الأعرابي .

«الكـودن : الـبرذون . يضهـززني : يحركني . الـوصيد : البـاب . الـدع : الـدفـع . الأخيشب : تصغـير الأخشب وهو الغليظ . المنسأة : العصا . قهقهر : رجع القهقرى . قَطَره : ألقاه على إحدى قُطْريه ، وهما جانبـاه . يثـجُّ : يسيل . النجيع : الـدم . الكتـد : ما بين الكـاهل إلى الظهر ، وهو بُعيد مفرز العنق» .

منصب النحاة : فمنهم طائفة استولى حبُّ النحو على قلبها ، وملأ ذهنها ، فأداها إلى التمشدق بالألفاظ ، بحيث خاطبت به من لا يعرفه ، فعدَّ ذلك من جهلها ، كما حكي أن طبيبًا دخل إلى نحوي مريض فقال : ما أَكْلُكَ أمس؟ قال : أكلت لحم عطعط ، وساقة خِرْنق ، وجؤجؤ حَيْقُطان اقتنصه بازي . فلما كان الدجى أصبتُ منه معمعةً في الحشا ، وقرقرة في المـعـي .

فقال الطبيب للحاضرين : هذه خفة ارتفعت إلى الدماغ ، فأصلحوا الغذاء له قبل أن يُجَن .

«العـطعط : الجـدي . الخرنق : ولد الأرنب . الجؤجؤ : الصدر . الحيقطان : الدرَّاج الذكر» .

منصب خازن الكتب: وحقٌّ عليه الاحتفاظ بها ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها إلى الحبك ، والضنَّة بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم في العارية الفقراءَ الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء .

وكثيرًا ما يشترط الواقف ألّا يخرج الكتاب إلا برهنٍ يحرز قيمته ، وهو شرط صحيح معتبر ، فليس للخازن أن يعير إلا برهن . صرَّح به السبكي وغيره ، وذكر أنه ليس هو الرهن الشرعي .

منصب كاتب الغَيْبة(١) : وعليه اعتماد الحق ، وألا يكتب على كل من لم يحضر ، ولكن يستفصح عن سبب تخلفه . فإن كان له عذر بيِّنه ، وإن هو كتب على غير بصيرة فقد ظلمه حقَّه ، وإن سامح لمجرد حطام يأخذه من الفقيه فهو على شفير جهنم .

منصب الطيَّان: وكثير من الطيانين يدعوهم داعٍ إلى تبييض جدار ، فيرون ذلك الجدار منشقًّا آيلًا إلى السقوط ، فلا ينبهون صاحبه ، بل يطينونه رغبة في الأجرة وسرعة العمل ، ويعمي خبره على صاحبه ، ويكون ذلك سببًا لوقوعه على نفس أو أكثر ، وذلك من الجناية في الدين .

منصب معلم الكُتَّاب: وينبغي أن يكون صحيح العقيدة ، فلقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة لأن فقيههم كان كذلك .

فأول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل

---

(١) يسجل كاتب الغيبة أسماء الغياب في مجالس العلم . وإذا قرىء الكتاب على شيخ وتغيَّب أحد المستمعين فيكتب: « . . . فاته من باب كذا إلى باب كذا» . أو يكتب جانب اسمه: «مع فوت» .

البحث عن دينه في الفروع ، ثم البحث عن دينه في الفروع .

ومن حق معلم الصغار ألا يعلمهم شيئًا قبل القرآن ، ثم بعده حديث النبي ، ﷺ ، ولا يتكلم معهم في العقائد ، بل يدعهم إلى أن يتأهَّلوا حق التأهل ، ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة .

منصب الناسخ[١] : ومن حقه ألا يكتب شيئًا من الكتب المضلة ، ككتب أهل البدع والأهواء . وكذلك لا يكتب الكتب التي لا ينفع الله بها وليس للدين بها حاجة . . وكذا كتب أهل المجون وما وضعوه في أصناف الجماع وصفات الخمر ، وغير ذلك مما يهيج المحرمات .

فنحن نحذِّر النسَّاخ منها ، فإن الدنيا تغرّهم ، وغالبًا مستكتب هذه الأشياء يعطي من الأجرة أكثر مما يعطيه مستكتب العلم . فينبغي للناسخ ألا يبيع دينه بدنياه .

ومن النساخ من لا يتقي الله ، ويكتب على عجلة ، أو يحذف من أثناء الكتاب شيئًا رغبة في إنجازه ، إذا كان قد استؤجر على نسخه جملة ، وهذا خائن لله تعالى في تضييع العلم ، وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض ، ولمصنف الكتاب في تبتيره تصنيفه ، وللذي استأجره في سرقته منه هذا القدر .

منصب الطبيب: ومن حقه بذل النصح ، والرفق بالمريض . وإذا رأى علامات الموت لم يكن بأس أن ينبه على الوصية بلطف من القول .

---

(١) ومثاله في هذا العصر صاحب المطبعة أو دار النشر ، أو الناسخ على الآلة الكاتبة ، أو مدخل البيانات في الحاسب الآلي ، أو من يعمل في آلات التصوير الورقية . . والله أعلم (محمد خير) .

منصب الخياط : ومن حقه ألا يخيط حريرًا ، ولا يجعله بطانة لمن يحرم عليه استعماله كالرجال . أما النساء والصبيان فاستعماله لهم غير حرام وإن جاوز الصبي سن التمييز ، خلافًا للرافعي من الشافعية .

منصب الصبَّاغ : ومن حقه ألا يصبغ بمحرم . وقد كثر من الصباغين الصبغ بالدماء ، وذلك محرم ، فإن صبغ به وغسل بعد ذلك فذهب الريح والطعم وبقي اللون ، وعسر إزالته فلا يضرّ .

منصب الفرَّاشين : ومن وظيفتهم ضرب خيام الأمراء . وحق عليهم ألا يحتجروا على الناس ويمنعوهم أرض الله الواسعة . فما أظلمه إذا جاء إلى ناحية من الفضاء فوجد فقيرًا قد سبق إليها ونزل فيها ، فأقامه منها ليخيِّم للأمير مكانه . وحكمُ الله أن السابق أولى ، والأمير والمأمور في ذلك سواء .

منصب البابا[١] : ومن حقه أن يحرص على إزالة نجاسة الثياب عند غسلها ، فيحترز من البول والغائط والمذي والمني والدم ونحو ذلك ، فإنه متى لاقى شيء من ذلك بدن الإنسان أو ثوبه لم تصح معه صلاته .

منصب المكاري[٢] : ولا يحل لمكاري يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكري دابته من امرأة يعرف أنها تمشي إلى شيء من المعاصي ، فإنه إعانة على معصية الله . وكثير من المكارية لا يعجبه أن يكاري إلا الفاجرات من النساء والمغنيات منهن ، لمغالاتهن في الكراء ، فإنهن يعطين من الأجرة فوق

---

(١) والبابا هو الذي يتعاطى الغسل والصقل ونحوه . والكلمة رومية معناها أبو الآباء . وسمي بذلك تشبيهًا له بالأب الشفوق لأنه يرفّه مخدومه ويقوم على خدمة ثيابه .

(٢) وهو سائق الأجرة في هذا العصر ، سواء أكان صاحب سيارة ، أو أنه يقود حيوانات .

ما يعطيه غيرهن ، فتغرُّه الدنيا . وفلس من حلال خير من درهم من حرام .

ومما تعم به البلوى عندما يكاري المكاري امرأة جميلة إلى مكان معين ، ويمشي معها ، وفي الطريق مواضع خالية من الناس ، كما بين البساتين ، فإن في معاطفها أماكن لو شاء الفاسق لفعل فيها ما شاء من الفجور . والذي أراه أن حكم ذلك حكم الخلوة بالأجنبية ، فلا يجوز .

منصب السجَّان : ومن حقه الرفق بالمحبوسين ولا يمنعهم من الجمعة إلا إذا منع القاضي من ذلك للمصلحة . ولا يمنع المحبوس من شم الرياحين إن كان مريضًا ، ويمنع من استمتاعه بزوجته دون دخولها لحاجة له .

وإذا علم السجان أن المحبوس حُبس بظلم كان عليه تمكينه بقدر استطاعته ، وإلا يكون شريكًا لمن حبسه في الظلم .

منصب الكلابزي : لله سبحانه عليه نعمة أن جعله خادم الكلاب ولم يجعله عاصر خمر ، أو غير ذلك مما ابتلى به بعض عبيده . فمن شكر هذه النعمة أن ينصح في خدمة كلاب الصيد ، وأن يعلم أن في كل كبد حرَّى أجرًا ، وإن كان له على خدمتها جُعْلٌ فهذه نعمة ثانية عليه أن يوفيها حق شكرها . فإن كان في باب ذي جاه فهذه نعمة ثالثة عليه شكرٌ ثالث لأجلها ، وعلى هذا فاعتبر .

الهفوات النادرة*

لغرس النعمة

● حُكي أن امرأة وقفت للمأمون على الطريق وقد حضَّرت كلامًا وحفظته ، وسجَّعته ورتَّبته ، لتدعو له به وتستميحه . فتكلمت ، فانقلب لسانها بالدعاء عليه على السجع الذي رتبته وهيأته !! فعلم المأمون أنها غالطة ، فقال: الله يفعل بنا ما نويتِه لا ما أبديتِه ، اقضوا حاجتها!

● ونزل أبو عبدالله بن الجصَّاص الجوهري يومًا مع الخاقاني الوزير في زبزبه[1] ، وفي يده بطيخة فيها كافور ، فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجلة ، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة ، فارتاع الوزير واشتغل بغسل وجهه مما أصابه ، وانزعج ابن الجصاص وتحيَّر لما شاهده من سوء فعله وشدة تخلّفه ، فقال: والله العظيم أيها الوزير لقد أخطأت

(*) الهفوات النادرة/ تأليف غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابىء ، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر . دمشق: مجمع اللغة العربية ، ١٣٨٧هـ ، ٥٣ ، ٥٤٢ ص .
والمؤلف مؤرخ أديب مترسل ، من أهل بغداد . كان محترمًا عند الخلفاء والملوك . له كتاب «الربيع» ، وكتاب «عيون التواريخ» جعله ذيلاً لتاريخ أبيه (وتاريخ أبيه ذيل لتاريخ ثابت بن سنان ، وهذا ذيل لتاريخ ابن جرير الطبري) ، وينتهي تاريخ غرس النعمة إلى عام ٤٧٩هـ. ت ٤٨٠هـ . وقد قدم المحقق للكتاب مقدمة طويلة . . وذكر الزركلي في هامش ترجمته أنه قرأ في مخطوط في التراجم مجهول المؤلف ، في ترجمة هلال بن المحسن عن كتابه هذا أن فيه «الهفوات النادرة من المغفلين الملحوظين والسقطات البادرة من المغفلين المحظوظين ، جمع فيه كثيرًا من الحكايات التي تتعلق بهذا الباب» . الأعلام ٣٥٧/٧ ، ط ٢ .

(١) الزبازب: سفن نهرية كانت تتخذ في بغداد أيام العباسيين .

وغلطت ، أردت أن أبصق في وجهك وأرمي بالبطيخة في دجلة! فقال له الوزير: كذلك فعلت يا جاهل! فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار ! !

● وحُكي أن أبا عبدالله بن الجصاص كان جالسًا يُحادث المقتدر بالله ، فنام ، فقال له المقتدر هو ذا تنام يا أبا عبدالله! فقال: تحت داري كلاب ما يدعوني أنام الليل ، فقال له: تقدَّم إلى الغلمان بطردهم! فقال: يا أمير المؤمنين هم شيء يُطاقون! والله إن كل كلب مثلي ومثلك كرَّتين! فضحك المقتدر وقال: بل مثلك وحدك! واستيقظ ابن الجصاص فخجل واعتذر!

● وذكر حمَّاد بن إسحق عن أبي بكر بن عيَّاش قال: كان بالكوفة امرأة لها زوج قد عسر عليه المعاش ، فقالت له: لو خرجت فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالى رجوت أن تُرزق شيئًا . فخرج إلى الشام فكسب ثلثمائة درهم فاشترى بها ناقة فارهة وركبها قاصدًا إلى الكوفة ، وكانت زعرة ، فأضجرته واغتاظ منها ومن زوجته وإخراجه وتقطيعه بأسفاره ، فبدر لسانه فيها بأن حلف بطلاق امرأته أنه يبيعها يوم يدخل الكوفة بدرهم! وسكن من حَرَدِه ، فندم أشد ندامة واغتم أعظم غم ، وقدم الكوفة فقالت له زوجته: أي شيء جئت به معك؟ ورأته مغتمًّا ، قال: لا شيء! فقالت له: فهذه الناقة لمن؟ قال: لا أدري لمن تحصل له ، وحدَّثها بحديثه وما جنى عليه حرده وجرَّ لسانه ، فقالت له: أنا أحتال لك حتى لا تحنث ولا تخيب . وعمدت إلى سنَّور فأخذتها وعلَّقتها في عُنق الناقة وقالت: أدخلها السوق وناد عليها: من يشتري هذه السنور بثلثمائة درهم والناقة بدرهم واحد ، ولا أُفرِّق بينهما؟! فدخل السوق وفعل ذلك ، فجاء أعرابي يدور حول الناقة وجعل يقول: ما أسمنك ما أفرهك ما أحسنك ما أرخصك! لولا هذا المشارك الذي في عنقك!

● وحدثني المانداي قال: كنت يومًا عند أبي البركات العلوي المدائني ، وهناك ابن عبدالسميع الهاشمي وجماعة حضور ، فانجرَّ الحديث إلى أن حكيت له حكاية كانت مع رجل في جوارنا بنهر طابق يقال له ابن نفّاط ، وقلت: إنه استدعى خياطًا فصَّل له ثيابًا وأقعده يخيطها بين يديه ، وجاء الليل وأُحضرت الشمعة ، فقال للخياط: حدثني بشيء من سير الفُرس وأخبارهم . فلم يفهم عنه ما قاله ، فضلاً عن أن يحدثه بما التمسه ، وقال: يا سيدنا ما أعرف شيئًا من ذاك ومن هؤلاء الفرس ومتى كانوا وأين كانوا!! فقال: إنا لله ، فهات شيئًا من سيرة النبي ، عليه السلام وأخباره وفتوحه وأفعاله وما جرى له مع قريش! فقال: يا سيدنا ما أعرف إلا أنه رسول الله تعالى ، فأمّا تفصيل ذلك فعند غيري ، وعلى من تشاغل به ، ولم ينكمش على مثل صنعتي! فأنشد قائلاً:

غُفْلٌ من الناس ليس فيه ... موضعُ هجوٍ ولا مديح!

ثم قال: فاقرأ خمس آيات من القرآن لنقطع زماننا بشيء يكون فيه ثواب وأجر ، فقال: والله العظيم ما أعرف إلا ما أُصلي به ، على غير إتقان له ولا علم على الحقيقة به! فقال: ويلك فما سمعت أحدوثة في بيتك ومن أهلك ومن يضمه ذراك؟ فقال: أفمن هذا تريد؟ السمع والطاعة ، ثم قال: كانت فأرة . .

قال: أي شيء هذا مما يُتحدث به! هات .

فقال: كنست بيتها . .

قال: والفأرة تمسك مكنسة! وتفهم الكنس! وأي بيت لها يخصها! هذا جنون ، ولكن هات ما عندك لننظر آخره!

فقال: وجدت حنطاية . .

فقال: حنطاية! ما هي؟

قال: طعام .

قال: يجوز أن يكون في أعشاش الفأر طعام؟

قال: فحملتها إلى الطحان وقالت: اطحن لي هذه وخذ نصفها وأعطني نصفها .

فقال: ويلك! أيتهيَّأ أن تمضي الفأرة إلى الطحان وتخاطبه بلسان صهصلق[1] وكلام ذَلْق[2]؟! هذا محال! هذا محال!

● وحدث أن سابور الوزير استناب في دار العلم خازنًا يُكنى بأبي منصور ، فلبس في بعض الأعياد ثيابًا جُددًا ، وأخذ في السَّحر قارورة فيها حِبر ، فصبَّها في يده وطرحها على وجهه ، غلطًا من قارورة ماء الورد إلى قارورة الحبر ، وخرج على تلك الصفة يريد الجامع ، فلقيه الناس وتضاحكوا منه وأروه ما به ، فقال: غلطنا من ماء الورد إلى الحبر! ورجع .

● وحكى أبو عبيدة قال: كان عجل بن لجيم من محمَّقي العرب ، فقيل له يومًا إن لكل فرس اسمًا ، فما اسم فرسك فإنه جواد؟ قال: لم أُسمِّه ، قالوا: فسمِّه ، ففقأ إحدى عينيه وقال: قد سميته الأعور! وفيه يقول الشاعر:

رمتني بنو عجل بداء أبيهم ... وهل أحد في الناس أحمق من عِجل
أليس أبوهم عاب عين جواده ... فسارت به الأمثال في الناس بالجهل

● وحُكي أن الحجاج انفرد يومًا من عسكره في سواد واسط ، فمرَّ ببستاني يسقي ضيعته ، فوقف معه وقال: يا بستاني ، كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله ، المبيد المبير ، الحقود الحسود ، وعاء النقمة ، مزيل النعمة ، سافك الدماء بغير حلِّها ، المفرِّق بين الحبيبة وخلِّها ، جاعل النساء أيامى والولدان

---

(١) صهصلق: شديد .
(٢) لسان ذلق: حديد بليغ .

يتامى ، والروح شيئًا معدومًا ، والمال إرثًا مقسومًا ، عجَّل الله منه بالانتقام ، وصرف معرَّته ومضرَّته عن المسلمين والإسلام! فقال له الحجاج : أتعرفني؟ قال : لا ، قال : فأنا الحجاج : فرأى البستاني دمه طائحًا وموته لائحًا ، فرفع عصًا كانت بيده عليه ، وقال : أتعرفني؟ أنا أبو ثور المجنون ، وهذا يوم صرعي! وأزبد وأرغى وهاج وعدا ، وأراد أن يضرب رأسه بالعصا ، فضحك الحجاج منه ومضى .

● وحدَّث أبو العباس المبرّد قال : دخل خالد بن صفوان[1] على أبي العباس السفاح ، فوجده خاليًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أترقب مذ تقلَّدت الخلافة أن أجدك خاليًا ، فألقي إليك ما أريده . قال : فاذكر حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، إني فكرتُ في أمرك ، فلم أر ذا حالة في مثل قدرك أقلَّ استمتاعًا بالنساء ولا أضيق فيهنَّ عيشًا منك ، لأنك قد ملَّكت على نفسك امرأة واحدة ، واقتصرت عليها ، فإن مرضتْ مرضتَ وإن غابتْ غِبتَ ، وإن غضبتْ حُرمتَ! إنما التلذذ باستطراف الجواري ومعرفة اختلاف أحوالهن والاستمتاع بهن ، فلو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والسمراء اللفاء والصفراء العجزاء والغنجة الكحلاء والمولَّدات من المدنيَّات والملاح من القندهاريات ، ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأصداغ المزرفنة والثدي المحققة! وجعل خالد بعذوبة لفظه واقتداره على وصفه يزيد في قوله .

فلما فرغ من كلامه قال له : والله يا خالد ما سلك سمعي قط كلام أحسن من هذا ، فأعد عليَّ قولك ، فقد حرَّك مني ساكنًا! فأعاد عليه خالد بأحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف عنه ، وبقي السفاح مفكرًا عامة نهاره إذ

---

(١) من فصحاء العرب المشهورين ، جالس عمر بن عبدالعزيز ، وهشامًا ، وأدرك خلافة السفاح ، وحظي عنده . ت نحو ١٣٣هـ .

دخلت عليه أم سلمة المخزومية زوجته ، فلما رأته دائم الفكر كثير السهو قليل النشاط قالت: إني أنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث ما تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له؟ فقال لها: لم يكن من ذلك شيء ، قالت: فما قصتك؟ فجعل يورِّي عنها ، فلم تزل به حتى حدثها ، قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله! رجل نصحني تسبينه!

فخرجت من عنده متميزة غضبًا ، وأرسلت إلى خالد بجماعة من مواليها وغِلمانها العجم ومعهم الكافركوبات(١) ، وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضوًا صحيحًا .

قال خالد: وانصرفت وأنا على غاية السرور بما رأيت السفاح عليه من إعجابه بما ألقيته إليه ، فقعدت على بابي أتوقع صلته ، فلم أشعر إلا بالغلمان ، وتحقَّقت مجيئهم بالجائزة ، حتى وقفوا على رأسي ، وسألوني عني فقلت: هأنذا ، فسبق بعضهم بهراوته فأهوى بها إليَّ ، فوثبت ودخلت داري ، وغلَّقت بابي واستترت ، وعرفت هفوتي وزلَّتي في فعلي وكلمتي ، وعلمت من حيث أتيت ، ومكثت أيامًا مستترًا ، فلم أشعر ذات يوم إلا بجماعة من خدم السفاح قد هجموا عليَّ فقالوا: أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالهلكة ، فركبت معهم وأنا بلا دم ، فلما دخلت عليه وسلَّمت فرد عليَّ سكنت نفسي بعض السكون ، وأومأ إليَّ بالجلوس فجلست ، ونظرت فإذا خلف ظهره باب عليه ستور قد أرخيت ، وأحسست بحركة خلفه ، فقال لي: يا خالد لم أرك منذ أيام! فاعتللت عليه ، فقال لي: ويحك إنك وصفت لي آخر يوم كنت عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط مثله فأعده علي! قلت: نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن

(١) لعله اسم أعجمي لآلات يضرب بها كالعمد ونحوها .

العـرب اشتقَّت اسم الضرتين من الضر ، وأن أحدهم لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد وكد ، قال له السفاح : ويحك لم يكن هذا في كلامك! قال : قلت له بلى ، والله لقد أخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافيِّ القدر تغلي عليهن! قال السفاح : برئت من قرابتي من رسول الله ، ﷺ ، إن كنت سمعت هذا منك في حديث! قلت : بلى وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لمن كن عنده ، إنهن يهرمنه وينغصن عليه عيشه ، ويشيبنه قبل حينه! قال : ويلك والله ما سمعت هذا قط منك ولا من غيرك! قلت : بلى يا أمـير المؤمين لقد قلت! قال : ويلك تكذبني؟ قلت : يا أمير المؤمنـين فتريد قتـلي؟ قال : مُرَّ في حديثك . . قلت : وأخبرتك أن أبكار الجـواري كالرجال ، ولكن لا خصيَّ لهن! قال : فسمعت ضحكًا شديدًا وراء الستر ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وأعلمتك أن عندك ريحانة قريش وأنه لا يجب أن تطمح نفسك إلى شيء من النساء غيرها .

قال خالد : فسمعت من وراء الستر : «صدقت والله يا عماه ، ولكن أمير المؤمنين غيَّر وبدَّل ونطق عن لسانك بغير ما ذكرته له!» . فقال السفاح : مالك قاتلك الله! فما رأيت قط أبهت منك! قال : فخرجت من عنده ، فلم أصل إلى منزلي حتى وجَّهت إليَّ أمُّ سلمة ثلاث تخوت فيها أنواع الثياب ، وخمسة آلاف درهم!!

● وحضر محمد بن عيسى بن علي بحضرة المنصور ، والمنصور يأكل وحده ، فدعاه إلى الغداء فقال : أنا شبعان يا أمير المؤمنين ، فلما خرج أخذه الربيع وضربه بحضرة أهل بيته ، فظنوا أن المنصور أمر بذاك ، فمضى إلى أبيه يبكي ، فجاء عيسى إلى المنصور وخلع سيفه بين يديه ، وضجَّ من فعل الـربيع ، فقـال : ما أمـرت بذاك ، ولم يفعـل الـربيع ما تذكره إلا لأمر

يقتضيه ، واستدعى الربيع وسأله عن خبره فقال : أمرته يا أمير المؤمنين أن يتغدى معك ، فقال : أنا شبعان ، وإنما دعوتَه لتشرُّفه لا لتشبعه ، فأدَّبتُه إذ لم يؤدِّبه أبوه! فقال المنصور: أحسنت ، قد علمت أنك لم تخطىء .

● عمل فخر الملك أبو غالب[1] سماطًا عظيمًا للأتراك ببغداد ، واغترم شيئًا كثيرًا ، وكان مما يتعذَّر مثله ، وفرح بما تم له فيه ، ووقف يمشي على السماط ، ويخدم الناس ، فقال لبعض الأتراك مازحًا معه ـ وقد كسر دجاجة ـ: ما بينك وبين هذه المسكينة! فرفع رأسه إليه وقال له : والله ما علمت أنك تراني يا مولانا! ورمى بالدجاجة ، وكان يبخل على الطعام ، فخجل خجلاً نغص عليه يومه وذمَّم له فعله ، ودخل إلى بعض الحجر ، واستدعى خمس قطع ثيابًا حسنة وأنفذها إلى دار التركي استكفافًا له عن ذكر تلك الكلمة التي غلط بها وهفا فيها!

● ودخل بعض أصدقائنا إلى رجل قد ابتاع دارًا في جواره ، وسلم عليه وأظهر الأُنس بقربه والابتهاج بمكانه ، وعاشره وصادقه . فلما كان يومًا من الأيام قال له : كان فلان صاحبُ هذه الدار التي ابتعتها أنت الآن ـ رحمه الله ـ صديقنا وأخانا ورفيقنا وشقيقنا ، إلا أنك أنت بحمد الله تعالى أوفى منه مكانًا وكرمًا وموضعًا ، وأوسع نفسًا وصدرًا ، وأعلى محلاًّ وقدرًا ، والحمد لله الذي عوَّضنا مثلك عنه ، وبدَّلنا به من هو خير منه! وأنشد :

بَدَلٌ من البازي غرابٌ أَبْقَعُ

فضحك الرجل حتى استلقى ، وتعجَّب من غفلته ، ولم يكن المنشد يفهم ما أنشد ولا يعلم ما أورد ، فسقط لقوله ، وخجل من إنشاده ، وصار معيرة له يولع لأجلها دائمًا به .

(١) وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهي . من أعاظم وزراء البويهيين وكرمائهم .

● كان محمد بن منصور قاضيًا بالأهواز ، وعمر بن فرج الرُّخَّجي يتقلد الخراج بها . وكانا يتوازيان في المرتبة السلطانية ، ولا يركب أحدهما إلى الآخر ، وكلٌّ يطلب من الآخر أن يجيء إليه!

فلما كان في بعض الأوقات ، ورد خادم بكتاب من الخليفة المتوكل إليهما بأن يجتمعا على أمر رسمه لهما . فقال الرخجي (صاحب الخراج) للقاضي: تحضر الديوان لنجتمع ، وقال القاضي له: بل تحضر أنت الجامع لنجتمع على ما رُسم . فقال الرخجي للخادم: ترجع إلى أمير المؤمنين المتوكل وتخبره أن القاضي امتنع من أن يحضر ديوانه .

فبلغ القاضي ذلك ، فركب إلى الديوان . ودخل والرخجي جالس ، وبين يديه الكُتَّاب . فمن شاهدوا القاضي قاموا له وخدموه ، إلا الرخجي ، فإنه لم يكلمه ، ولا سلم القاضي عليه . وجلس في طرف المجلس وآخر البساط . ثم تكلما في الموضوع الذي رسم لهما الخليفة المتوكل حتى فرغوا منه . فلما انقضى ذلك قال الرخجي للقاضي: يا أبا جعفر ما هذا الأمر منك؟ لا تزال تولع بي وتتحكَّك بمناقرتي ومضاهاتي ، وتقدِّر أنك عند الخليفة مثلي ، أو محلك يوازي محلي! قال: وأسرف في هذا القول ، وحمي في الخطاب ، ومضى على رأسه في الكلام ، والقاضي ساكت ، إلى أن قال في جملة كلامه وبحدَّة طبعه: والخليفة - أعزه الله - لا يصرف على يدي في أمواله التي بها مقام دولته ، ولقد أخذتُ من ماله ألف ألف دينار ، وألف ألف دينار ، وألف ألف دينار ، وألف ألف دينار ، وألف ألف دينار فما سألني عنها ، وإنما إليك أن تُحلِّف منكِرًا لحق ، وأن تفرض لامرأة على زوجها ، وأن تحبس ممتنعًا من أداء حق . . وأخذ يعدد هذا وشبهه ، وأبو جعفر يعد بأصابعه الألف الألف التي كررها ، وقد كشفها للناس ليروها إلى أن عقد خمسة .

فلما أمسك الرخجي لم يجبه القاضي بشيء ، وقال: يا فلان الوكيل ، قال: لبيك ، قال: سمعت ما جرى؟ قال: نعم ، قال: قد وكلتك لأمير المؤمنين وللمسلمين على هذا الرجل في المطالبة لهم بهذا المال الذي أقر به ، فقال الوكيل: إن رأى القاضي أن يحكم بهذا المال للمسلمين فعل! فأخذ القاضي دواة وكتب بخطه ورمى به إلى الشهود وقال: اشهدوا على إنفاذي الحكم بما في هذا الكتاب ، وإلزامي فلان ابن فلان هذا - وأومأ إلى الرخجي - ما أقر به عندي من المال المذكور مبلغه في هذا الكتاب للمسلمين! فكتب الشهود خطوطهم بالشهادة وختموها ، وأخذها القاضي فجعلها في كمه ، ونهض ، وأخذ الرخجي يهزأ بالقاضي ويقول: يا أبا جعفر بالغت في عقوبتي ، قتلتني ، أهلكتني! فقال له القاضي: إي والله! فما سمعناه أجابه بغيرها ، وافترقا.

وكتب صاحب الخبر إلى المتوكل في الوقت بما جرى ، فلما وقف المتوكل على الحال تقدم بالقبض على الرخجي وتقييده ، وقال لوزيره: حاسب هذا الخائن المقتطع لأموالنا حتى حفظها الله تعالى بقاضينا محمد بن منصور ، وقد ظهرت أموالنا عليه بإقراره في سقطات قوله وفلتات فعله ، اكتب الساعة في أمره بما رسمتُه واحمله مقيَّدًا مغلولاً .

فخرج الوزير وهو على غاية القلق لعنايته بالرخجي ، ثم أرسل إليه يخبره أنه سيؤخر أمر الخليفة ليوم واحد فقط ، عسى أن يتدبر أمره مع القاضي . فلما أشعر الرخجي بذلك قامت قيامته ، وأحضر من يخصه فشاوره فقال له: تركب الساعة إلى القاضي وتطرح نفسك عليه . . فركب إليه في موكب عظيم ، فحجبه ولم يوصله ، واجتهد في الوصول إليه ، فلم يكن إلى ذلك طريق ، فرجع حيران ، وقال لأصحابه: ما ترون فإني أخاف أن يرد العشية من يقبض عليَّ! فقيل له إن للقاضي رجلاً يخصه ، وقد قدمه

وعظمه وأنس به ، فتسأله أن يوصلك إليه ويستصلحه لك! فأحضره الرخجي ، فقال له: أما استصلاحه لك فلا أضمنه ، ولكن أوصلك إليه ، فقال له: قد رضيت ، فقال: إذا كان وقت المغرب فانتظرني!

وخرج الرجل ، فلما كان المغرب جاءه وقال: تلبس عمامة وطيلسانًا وتركب حمارًا وتجيء وحدك ، ففعل ذلك وركبا بغير سمعة ، وجاء الرجل فقال للحاجب: استأذن لي على القاضي ولصديق لي معي ، فدخل إليه وخرج إليهما وقال: ادخلا ، فدخلا ، فحين شاهده القاضي صاح على الرجل وقال له: أتحتال وأنت أمين مرشح للشهادة! ثم قال للرخجي: اخرج ـ عافاك الله ـ عن داري! قال: فبادر الرخجي إلى رأسه فقبله ، فلما رآه القاضي قد فعل ذلك قام إليه وعانقه وجلسا ، وبكى الرخجي بين يديه ، ودفع الكتاب إليه ، فبكى القاضي وقال: عزيز علي يا هذا ، ما كان اضطرّك إلى الإقرار بما أقررت به! قال: غلطت وأخطأت وغفلت ، فتحتال الآن في أمري؟ فقال: والله ما لي حيلة ، فإن الحكم كالسهم إذا خرج لم يمكن رده! فجهد به الرخجي فما زاده على هذا ، وانصرف بأقبح منصرف .

فلما كان من الغد ورد خادم فقبض عليه ، وغلَّه وقيده ، وحمله ، وورد كتاب الخليفة إلى القاضي: «أحسن الله تعالى جزاءك على ما فعلته في أموال المسلمين ، وقد كنَّا نأمر بمحاسبة هذا الرجل فنؤخر ذلك لعوائق ، والآن فقد آقر طائعًا غير مكره بما في ذمته ، وما نؤثر معاملته إلا بما يعمله أهل الذمة لو كانوا في مكاننا من أخذ الحق بالحكم ، وقد أنفذتَه على الواجب ـ بارك الله عليك ـ وله أملاك قبلك ، فتنصب من يبيعها وتحمل ثمنها إلى بيت المال» . ففعل ذلك ، وهي الأملاك التي تُعرف الآن بالرخجيات ، وجعل الرخجي في العذاب بسامراء .

● قال أبـو الحسن التنـوخي : كنت يومًا عند أسد بن جهور وهو يكتب ، فجفَّت دواته ، فقال : يا غلام كوز ماء للدواة ، فجاء الغلام بكوز ماء ، فأخـذه وشربه ، ومضى الغلام بالكوز ، وأخذ يكتب فلم تنكتب له . فقال : ويلك هات الماء للدواة ، فجاء بشربة ثانية ، فأخذها وشربها ، ولم يطرح في الدواة منها ، ثم كتب فلم تنكتب له ، فقال : ويلك كم أطلب للدواة ماء ولا تحضره! فجاءه الغلام بشربة ثالثة ، فأخذ يشربها ، فقال له : يا سيدي اطرح منها أولاً في الدواة ثم اشرب الباقي! فقال : نعم نعم وطرح في الدواة وكتب .

● حدَّث بعضهم في وقعة قال : كان معي سبعون دينارًا ، فعمدت إلى تلٍّ صغير ، فدفنتها في جانبه ، وعفَّيت أثرها ، وابتعدت عنها بحيث أشاهدها . فاتفق أن سقط غراب على التل ، ورماه أحد الأتراك بنشَّابة ، فوقعت في الـدنـانـير ، ومضى الـتركي ، فانتـزع النشـابة ، فظهرت له الدنانير ، فأخذها!

● وكـان محمـد بن عبـدالملك مرض ، فدخل عليه أحمد بن أبي خالد ، وهو أصمّ ، فقال لمحمد : كيف أصبحت جُعلت فداك؟ قال له : بشر! فلم يسمـع ، فقال : الحمد لله على ذلك ، فمن يختلف إليك من الأطباء؟ قال : إبليس! قال : مبارك رفيق ، فأي شيء وصف لك؟ قال : آجر مدقوق! قال : خفيف طيِّب ، فخذه ولا تفارقه!

● شكا الكتاب إلى الفضل بن مروان ما يلقونه من حدة أحمد بن الخصيب وعجلتـه ، فقـال : كيف لو رأيتم محمد بن جميل وهو يلي ديوان الخراج ، وقد أنكر على كاتب له حرفًا كتبه ، فأخذ النعل وقام إليه ، وعدا الكـاتب بين يديه ، وجعـل يتبعـه وهو يدور حول بستان كان في صحن

الدار ، فلما أعيا الكاتب قال له: أنا كاتب أو وحش يصاد! فاستحيا منه ورجع عنه .

● وحدَّث أحمد بن الخصيب أن حجاجًا صاح به يومًا في الديوان: يا أبا إسحاق ، ابن بُويب من أبوه؟ فقلت له: بويب! قال: صدقت والله .

قال: وكان يطلب العمل والرقعة فإذا تعذر عليه وجوده قال: سبحان من يدع الشيء في موضع فإذا طلبه لم يجده سبحانه!

قال: وكان يقول لخازن الديوان إذا طلب منه عملاً: أين الاهن الاهنة الايش اسمه الما يقال له!

● كان ليعقوب بن داود ابن متخلف ، فوهب له المهدي جارية ، فلما دخل إليه قال له: كيف أمرك مع تلك الجارية؟ قال له: ما وضعت يا أمير المؤمنين بيني وبين الأرض مطية أوطأ منها ، حاشا السامع ، فقال المهدي لأبيه: من تراه عنى؟ مني أو منك؟ فقال له: الأحمق يا أمير المؤمنين تحفَّظ من كل شيء إلا من نفسه!

● وكان ليقطين بن موسى كاتب يُكنى بأبي خالد ويسمى بزدانفاذار فذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن لكنة بزدانفاذار كانت لكنة نبطية ، وأنه أملى يومًا على كاتب له: «والهاصل ألف كر»(١) ، فلما قرأه أنكر ذلك ، وقال له: أنت لا تُهسِنُ تكتب وأنا لا أُهْسِن أُملي! اكتب الآن: الجاصل بجيم معجمة ، فكتب!

● كان من كُتَّاب الإنشاء أيام الخليفة عضد الدولة كاتب يسمى أبا الحسين القمي ، واتفق أن حضر أبو الفتح عثمان بن جني النحوي إلى

---

(١) الكر: مكيال يكال به الطعام . واللكنة في «الهاصل» بجعل الحاء هاء .

الـديوان ، وكانت له عادة عندما يتحدث بأن يميل بشفته ويشير بيده . فبقي أبـو الحسـين القمي شاخصاً ببصره ، ويتعجب منه ، فقال له أبو الفتح : ما بك يا أبا الحسين تحدِّق إليَّ النظر وتكثر مني العجب؟ فقال: شيء ظريف! فقـال: ما هو؟ قال: شبّهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا ، بقرد رأيته اليوم عند صعودي إلى دار المملكة على شاطىء دجله ، فعل مثلما فعل مولاي الشيخ! فامتعض أبو الفتح وقال له: ما هذا القول يا أبا الحسين أعزَّك الله ، ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أمجن فتمجن بي!! فلما رآه أبـو الحسين قد حرِدَ واشتطَّ وغضب قال له: المعذرة إلى الله تعالى وإلى مولاي الشيخ ، وقد صانه الله تعالى عن أن أشبهه بالقـرد ، وإنـما شبهت القـرد به! فضحك أبو الفتح وقال: ما أحسن ما اعتذرت! وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع ، وكان يتحدَّث هو بها دائمًا .

● كان أبو العباس سهل بن بشر دأبه التغليظ على الكتّاب والرد علهم وتغيير عروضهم التي ينشؤونها ، ولقد قال يومًا لأحدهم: ويلك لم يكن يجب أن تفصل في هذا الموضع هذا التفصيل الواسع! كان يجب أن يكون بقدر ما تسلكه نملة وقد جعلته بحيث تسلكه حيَّة ، أيش حية بل شاة ، أيش شاة بل دابة ، أيش دابة بل جمل ، أيش جمل بل فيل ، أيش فيل بل كركدن! ثم خرّق الكتاب ورمى به .

● كان أبو سعيد ماهك بن بندار الرازي المجوسي من كبار كتّاب الديلم . . فقال له الوزير مرة: يا أبا سعيد لا تبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أريده منك . فقال: السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير . ونهض من بين يديه . فقال الوزير بينه وبين نفسه: هذا رجل مجنون ، وربما طال بي الشغل وضاق صدره فانصرف . فتقدم إلى البوّابين بألا يدعوه يخرج من الدار . وفُعل ذلك ، وجلس ماهك طويلاً ، وأراد دخول الخلاء ، فقام

يطلب ذاك ، فرأى الأخلية مقفلة ، ووجد خلاء الخاص غير مقفل وعليه ستر مسبل ، فرفع الستر ليدخل ، فجاء الفراش الموكل بالموضع ومنعه ودفعه ، فقال: يا هذا أليس هذا خلاء؟ قال: نعم! قال: فأريد أن أعمل فيه حاجة فلم تمنعني؟ قال: هذا خلاء الخاص لا يدخله غير الوزير! قال: فبقية الأخلية مقفلة فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البوابون ، فأتغوَّط في ثيابي؟ فقال: لا ، استأذن في دخول خلاء ليتقدم بذاك ، ونفتح لك أحد الأخلية ، فتقضي حاجتك! واشتد به الأمر فكتب إلى الوزير رقعة قال فيها: «قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلى بعض ما يحتاج إليه الناس ولا يحسن ذكره ، والفرَّاش يقول لا تدخل ، والبواب يقول لا تخرج! وقد تحير عبده بين الفرَّاش والبواب ، والأمر في الشدة ، فإن رأى سيدنا الوزير أن يسمح لعبده بأن يعمل ما يحتاج إليه في خلائه فعل إن شاءالله تعالى» . ودفعها إلى بعض الحجاب فأوصلها إلى الويزر واستعلم الوزير الصورة ، وعرفها ، فضحك ، ووقَّع على ظهر الرقعة: «يتغوط أبو سعيد حيث يختار!» . فأخذ التوقيع ، وجاء به إلى الفرَّاش وقال: هذا هو ما طلبت ، وفيه توقيع سيدنا الوزير . فقال الفرَّاش: التوقيعات يقرؤها أبو العلاء بن أبرونا كاتب ديوان الدار ، وأنا لا أحسن أكتب ولا أقرأ . فصاح ماهك في الدار وقال: هات من يعمل لي في الديوان صك التغوط! فضحك فراش آخر ، وأخذه بيده إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته!!

● كتب الوزير إلى أبي منصور بن الفرج ـ وكان كاتبًا ـ بأن ينظر في قضية غلامين من الأتراك تشاجرا في إقطاع ضيعة بينهما ، وقال في التوقيع: «فإن الحق مقطعه ثلاث» يُريد بيت زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نِفار أو جلاء

فلما عرضا التوقيع عليه قال: أنتما اثنان فأين الثالث؟ قالا: مالنا

شريك ولا منازع ! قال : فكذا ذكر الوزير في توقيعه ، وقام فدخل إلى الوزير واستفهمه عن المقطع الثالث ، فقال له مستهزئًا به : أنا المقطع الثالث! فخرج إليهما وقال : الوزير يدَّعي معكما ثلث الإقطاع فأفردا ما يتعلق به لأحكم بينكما في الباقي ، فضجا من ذلك ودخلا إلى الوزير فعرَّفاه الحال ، فضحك ، وعرَّفهما الصورة فضحكا أيضًا ، وحكم الوزير بينهما .

● قال أبو طاهر الطهري حاجبُ ابن سهلان الوزير : كان في أبي محمد بن سهلان حدة مع رزانة جميلة ، وله ألفاظ يوردها في كلامه ، واستراحات بين ألفاظه لا يحتملها أهل العراق ، ومنها أنه كان يقول في أكثر أوقاته وضجراته : ليس تدرون من معكم في السفينة ، فقال لي لما دخلنا بغداد : أنت أيها الحاجب تعرف من أخلاق البغداديين وعيوبهم ومذاهبهم في الإزراء على العجم وغيبتهم لهم وإيراد الحكايات عنهم ما لا أعلمه ولا أقف عليه ولا أخبره ، وأريد أن تنبهني إلى ما أغفل عنه وأسهو فيه ، وتدلني على ما أتحفظ منه ، ولا تراعي في ذاك هيبة الوزارة أو حشمة الرياسة ، فإنها أمانة! فقلت : السمع والطاعة ، وكنت أشير إليه بإشارات في المواضع التي لا تحتمل الإفصاح ، فيعرف ويرجع . وقلت له يومًا : هو ذا تُكثر من قولك «تدرون من معكم في السفينة» وهذا مما يستقبحه البغداديون ويعيبون عليه ويطعنون على قائله فيه ، فقال : لم؟ فحاجزت[1] ودافعت ، وألحَّ ، فقلت : نعم يقولون في الإنسان إذا استحمقوه : هو تيس في سفينة! فأمسك! وكان ربما حملته الحدة والعادة على أن يقول ذاك ، فإذا نظرت إليه فطن وقطع ، وأمسك ورجع .

---

(١) حاجزتُ : مانعتُ .

● وحدث محمد بن شجاع قال: قرأ الكسائي في صلاة صلى فيها بهارون الرشيد: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(١) فقال له الرشيد: يا أبا الحسن في أي لغة هذه؟ قال: يا أمير المؤمنين إنه وقع في نفسي وأنا أقرأ أنه ليس أحد يقوم بالقرآن كقيامي، ولا يقف حدوده وتقطيعه وغريبه ومعانيه وتفصيله وقوفي، فحين وقع هذا في نفسي ابتليت بما ابتليت به في لساني!

● أملى زياد بن أبيه على كاتبه يومًا كتابًا إلى معاوية، فقال عن خاطر خطر بقلبه: «وهذا الرجل عِمران بن الفضل البُرجمي» فكتب الكاتب، فلما وصل الكتاب إلى معاوية، كتب إلى زياد: «ذكرت في كتابك عمران بن الفضل البرجمي ولم تذكر لهذا الكلام ما تقدمه ولا ما اتصل به؟» فسأل زياد الكاتب عن ذاك، فقال: ما أعلم، أنت تملي وأنا أكتب! فقال زياد: حديث نفس سقط بين كلامي وكتابي، لا تكتبوا كتابًا إلا جعلتم له نسخة في الديوان! فكان ذاك أول وضع النسخ.

● حدث الأصمعي أن أعرابيًّا كثر عياله، فتوجه بهم إلى خيبر لوبائها(٢) وقال:

قلت لحمَّى خيبر استعدِّي ... هذا عيالي فاجهدي وجدِّي
وباكري بصالِبٍ ووِرْدِ ... أعانك الله على ذا الجُند(٣)

فحُمَّ هو ومات، وسلم عياله وعادوا إلى موضعهم!

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤. ويبدو أن الكسائي قرأ الآية قراءة استغربها الرشيد فسأله عنها.
(٢) خيبر موصوفة بالحُمَّى.
(٣) حمى صالب: شديدة الحرارة، والورد: الحُمَّى.

● قيل لرجل: بكم تبيع شاتك؟ قال: اشتريتها بخمسة، وهي خير من ستة، وقد رأيت دونها بسبعة، وقد أُعطيت بها ثمانية، وفي نفسي أني لا أبيعها بتسعة، ولكن لا أنقصها عن عشرة، فمن أعطاني بها أحد عشر بعتها له، وإلا لم أبعها، والسلام!!

الفهـرس

NAJD COMMERCIAL PRINTING PRESS CO.
Riyadh-Tel.: 4488024 -4488026

شركة مطابع نجد التجارية
الرياض - ت : ٤٤٨٨٠٢٤ - ٤٤٨٨٠٢٦